Meditation

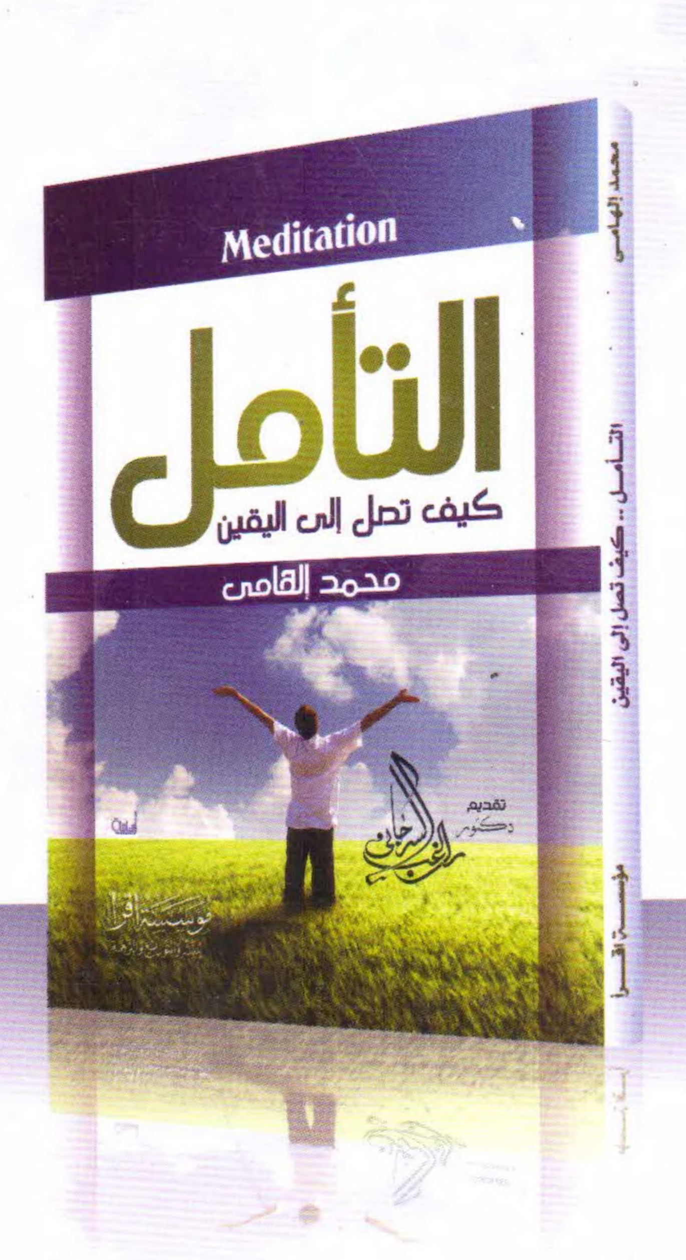


محمد القامى

تقديم
دكتور
راغب السرجاني

أسامة

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة





www.iqraakotob.net



التأمل

كيف تصل إلى اليقين

محمد إلهامي

تقديم

أ.د. راغب السرجاني



الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٩٧٨٧

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

إلهامي، محمد.
التأمل : كيف نصل إلى اليقين/ تأليف/محمد إلهامي
القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠
(١٦٠ص)، ٢٤ سم تدمك: ١-٧٩٠-٤٤١-٩٧٧-٩٧٨
١ - التأمل (تصوف إسلامي) ٢ - اليقين
أ - العنوان ٢٦٨,١

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط
القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١٠٥٢٢٤٢٠٧ - ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣
E-mail:iqraakotob@yahoo.com
www.Iqraakotob.net



إهداء

إلى أمي..

المرأة التي جمعت بين الطيبة الصافية والذكاء الحاد، وقليلاً ما يجتمعان..

تستطيع بشكل عجيب أن تنسى الإساءات، وأن تعفو عمن ظلمها ثم تبيت ولا شيء في قلبها على أحد..

إلى الغالية الحبيبة... حفظها الله ورعاها وأسعدها وأرضاها»

وإلى أبي..

ذلك الرجل الذي ما رأيت أصلب منه.

ليس يستطيع أن يرتكب ما يراه هو من خوارم المروءة، مهما كان مضطرًا ومهما كان معذورًا، ثم هو الذي ما رأيت أشد كتمانًا منه عن نفسه وأخباره وحياته.

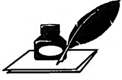
إنني أكتشفه من جديد في كل يوم، وفي كل حكاية أسمعها عنه من غيره، فتكشف لي أفق عظمة جديدة..

أسأل الله أن يمتعه بالعافية وحسن العمل ما كتب له الحياة..

ابنكما/ محمد

***






تقديم

بقلم

أ.د/ راغب السرجاني

كنت مشغولاً خلال الأسابيع الماضية بإجابة سؤال تلقيته من إحدى الطالبات تسأل عن كيفية الارتقاء الإيماني! بمعنى هل هناك سبيل واضح يستطيع المرء أن يسير فيه ليصعد بنفسه إيمانيًا، ويزداد يوما بعد يوم؟ وإذا كان هناك هذا السبيل، فما هي بدايته؟

وبعد بحث واستقصاء، وقراءة وتمحيص، وتفكر وتدبر، وصلت إلى ما أعتقد أنه إجابة لسؤال الطالبة، وتبين لي أن أول الطريق لهذا الصعود هو «التأمل»!

والتأمل الذي أقصده هو القراءة بتدبر ووعي لكتاب الله المقروء وهو القرآن الكريم، وكذلك القراءة بتدبر ووعي لكتاب الله المنظور وهو الكون..

إن هذه القراءة المتأنية للقرآن والكون ستقود حتمًا إلى أن نقدر لله قدره، وإذا قدرنا لله قدره فإننا سنسلم أنفسنا له، طائعين مختارين، فنكون حيث أراد، ولا نكون حيث لا يريد.. وستصبح عندها عبادتنا وطاعتنا وامتثالنا لكل ما أراده أمرًا طبيعيًّا فطريًّا، وسيظهر الشكل السوي للعلاقة بيننا كعبيد وبين الله عز وجل كإله وربّ.

لقد كانت بدايات قصة الإسلام هي التفكر والتأمل، فقد حُبِّب إلى رسول الله ﷺ الخلاء، فكان يذهب إلى غار حراء يتحنث – أي يتعبد – الليالي ذوات العدد، فماذا كان يفعل في خلوته هذه؟ إنما كان يتفكر في هذا الكون وخالقه سبحانه وتعالى، وظل على هذه الحال ثلاث سنوات كاملة حتى جاءه الوحي من ربه..

إن أول الطريق إلى الله عز وجل أن تتفكر في خلقه وفي كلامه سبحانه وتعالى، والذي لا يجد قلبه عند قراءة القرآن، أو لا يجد قلبه عند وقت الخلوة والتفكر، فليعلم أنه على خطر عظيم، فهو لم يصل بعد إلى أول الطريق، ويوشك من لم يعرف أول الطريق أن يضل.. يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: في مجالس الذكر وعند

سماع القرآن وفي أوقات الخلوة.

ولهذا كان أبو الدرداء يصرف وقتًا طويلاً من عمره في التفكر، وكان عامة الناس يرونه على هذه الهيئة فيظنون أنه يضيع وقته دون عمل، فسألوه: هل التفكر عمل من الأعمال؟ فرد بردٍّ حازم فاهم قائلاً: نعم، هو اليقين!

وهذا عين ما قصدته بأن التفكر والتأمل هو بداية الطريق.. فاليقين من صحة الطريق يدفعك للسير فيه بحماسة وقوة، أما الشك والتردد فإنه يقود إلى التخبط والضلال..

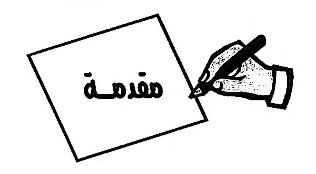
وبينما أنا أصوغ إجابتي حول هذا الموضوع المهم، إذا بي أتسلم من أخي الكريم محمد إلهامي كتابه الأول يطلب مني أن أكتب تقدمة له، وإذا بي أجد أن عنوانه هو «التأمل»! فقلت في نفسي «الله أكبر»! فهذه إشارة لابد من التفكر فيها، وهذا التزامن ليس عشوائيًا، ولكن أراد الله عز وجل أن يشرح صدرك لاختيار التأمل كأول علامات الطريق..

والأخ الكريم محمد إلهامي باحث شاب أعطاه الله عز وجل من الملكات والمواهب الكثير، فهو ليس غزير المعرفة فقط، ولا مبدعًا في أسلوبه وتعبيراته فحسب، وإنما أهم من كل ذلك أراه عميقا في رؤيته وتحليله، وناقدًا متدبرًا، لا يُسَلِّم بما قد يراه عامة الباحثين من المُسَلَّمات.. إنما يبحث ويُنَقِّب، ويقرأ ويحلل، ويبتكر ويبدع.. وقد يخرج بشيء جديد تمامًا عما رآه السابقون، أو قد يؤيد ما قالوه، لكن بعد وعي وإدراك، ودليل وحجة، فأنا أحسبه – والله حسيبه – على خير كبير، وأسأل الله ﷻ أن يجعل نظرتي فيه صائبة، وليكونن له – بإذن الله – شأن كبير، فاللهم ارزقه الإخلاص في كل أقواله وأعماله.

جاء كتابه هذا تفصيلا لما لخصته للأخت السائلة، وجاء شارحًا وافيًا لعبادة مهجورة، وإضافة جيدة –بل ممتازة– للمكتبة الإسلامية، وفي اعتقادي أن هذا أول الغيث، وسيتبعه سيل غزير نافع يمكث في الأرض بإذن الله، فاللهم وفقه لكل خير، وسدّد قلمه وفكره، حتى تخرج أمتنا من كبوتها، وتستعيد مكانتها بجهده وجهد أمثاله من العاملين..

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل..

أ.د. راغب السرجاني



بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

«البعـرة تـدل علـى الـبعير، وأثـر السـير يـدل علـى المسـير، أسَـماءٌ ذات أبراج وأرض ذات فجاج.. ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟!!» [(١)].

هذه الكلمات البسيطة الواضحة، كانت لأعرابي لم يحفظ التاريخ والرواة اسمه، ذلك أنه أعرابي عادي بسيط من بين كل الأعراب الذين امتلأت بهم الجزيرة العربية ذلك الوقت، لكن كلماته هذه قد خلَّدَتْه في التاريخ روحًا ومعنى وإن كنا قد جهلنا اسمه.

سمع الرجل بالدعوة إلى الإسلام فآمن بتلقائية وفي بساطة، وفسر هذا الموقف بكلماته الواضحة السهلة القليلة التى تدلنا على أن هذا الرجل «متأمل».

لقد كان يعرف بوضوح أن لهذه السماء الواسعة العالية صانعًا سواها وعلاَّها، ولهذه الأرض صانعًا – كذلك – خلقها ومهدها.. يعرف ذلك بنفس الوضوح وبنفس اليقين الذي يستقر في نفسه أن بعيرا قد عبر من هنا إذا رأى بعرة، وكذلك بنفس الوضوح ونفس اليقين إذا رأى أثر قدم يغوص في الرمال أن ثمة من سار هنا.

هكذا ببساطة، بتلقائية، وبوضوح.

هذه السطور القادمة تلقى الضوء وتلفت النظر إلى عبادة تخفت هذه الأيام رغم

(١) ابن الوزير: إيثار الحق على الخلق ص٥٢

عظمتها، وتأكلها دوامة الحياة المتسارعة، وتضيع بين الزحام والعمل والمواصلات.. ثم البيت واحتياجات الزوجة (أو الزوج) وطلبات الأولاد.

رغم أنها المدخل الطبيعى للإيمان بالله تبارك وتعالى..

ورغم أنها أول طريق اليقين في الله تبارك وتعالى..

ورغم سهولتها ويسرها..

ورغم لذتها وروعتها..

ورغم احتياجنا إليها..

هذه العبادة، هى عبادة التأمل أو التفكر.. وكل من امتلك نفسا تريد الحق ومارس هذه العبادة.. كلهم.. كلهم.. بلا استثناء، بدأوا في طريق الإيمان بالله تبارك وتعالى.

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهذى الصحارى والجبال الرواسيا

سل الكون مُزدانًا سل الزهر والندى ... سل الليل والإصباح والطير شاديا

سل هذه الأنسام والأرض والسما ... سل كل شيء، تسمع التوحيد ساريا

ولو جنَّ هذا الليل وامتد سَرْمَدًا ... فمن غير ربى يُرْجِع الصبح ثانيا

انتهيت منه بفضل الله تعالى في ليلة الجمعة ١٧/ ٣/ ٢٠٠٦[١].

محمد إلهامي

***

---

(١) تعطل خروج الكتاب إلى الطبع أربعة أعوام، فأضفت إليه بعض الزيادات والتنقيحات، وانتهيت منه ليلة الاثنين الرابع من شوال ١٤٣١ هـ الموافق ١٣ سبتمبر ٢٠١٠م.



الباب الأول

اليقين

- كلنا يريد الإيمان.
- الإيمان.. اليقين
- لماذا نحتاج إلى اليقين؟
- حلاوة الإيمان وبرد اليقين.



كلنا يريد الإيمان

لأن الإيمان هو الذي يعيد صياغة نظرة الإنسان لهذا الكون وهذه الحياة..

من لا يعرف الإيمان بالله وبالآخرة، يتطور إلى واحدة من ثلاث حالات:

١ - من لا يعرف الإيمان بالله وبالآخرة ينظر للحياة نظرة سوداء متشائمة، يراها فترة عبثية لا يدرى لم أتى إلى هذه الدنيا؟ وأين كان قبل أن يأتي؟ وأين سيذهب بعدها؟ وهل كل شيء ينتهي بالموت؟ هل التراب قادر على تسوية كل المشاكل بين الظالم والمظلوم، وبين القاتل والقتيل؟؟!!

هذه النظرة المتشائمة، أقل نتائجها أمراض مثل الكآبة والقلق.. أو الجنون.. أو الانتحار.

يخبرنا طبيب النفس الشهير الدكتور هنري ليك بعد تجربة السنين الطويلة باكتشافه أنه لا مناص عن الإيمان لعلاج الأمراض النفسية، ومع تعدد وتكرار النجاح بهذا الأسلوب وجد نفسه يعود من جديد إلى الإيمان، تاركًا الإلحاد، وألَّف كتابه الشهير «العودة إلى الإيمان».

يقول: «وجدت نفسي – أنا الملحد المنكر للبعث الكافر بالله – أتحمس بشدة مدافعًا عن مبدأ الاتجاه الديني في الحياة»[1]. وقد بدأت رحلة الإيمان عنده، كما يقول في كتابه، منذ ذلك الاختبار النفسي الذي أجرته مصلحة التشغيل في نيويورك على العاطلين، وكان هنري ليك من مستشاري المشروع توصلوا إلى «نتيجة هامة –وإن لم نُشِر إليها في التقرير النهائي– هي أن كل من يعتنق دينًا أو يتردد على دار للعبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين أو لا يزاول أية عبادة»[2].

(١) د. هنري ليك: العودة إلى الإيمان، ص١٧.
(٢) السابق ص٢٥.

حتى الفلسفة النفعية التي لا تفكر إلا في الحياة والمادة، والتي لا يهمها أن يوجد الإله أو لا يوجد، حتى هذه الفسلفة النفعية تقول بضرورة الدين للوصول إلى حياة أفضل؛ فهذا وليم جيمس[1] يرى أن الخير هو «إشباع مطالب الإنسان وتحقيق رغباته»، ولكن مع بحثه عن هذه المطالب والرغبات وصل إلى نتيجة نفعية غريبة، تلك هي قوله: «من حقنا أن نعتنق مبدأ خلقيًّا أو معتقدًا دينيًّا لا يحملنا على اعتناقه تفكيرنا النظري المجرد، بل تدعونا إلى اعتناقه مطالب الحياة ومقتضياتها». ولذلك فهو يرى ضرورة الدين، لأنه «يتحول عند المؤمن إلى سلوك ناجح في حياته، فالإيمان يساعد صاحبه على احتمال الكوارث ويجعله أقدر على الصبر والعمل، بعكس الإلحاد الذي يدفع بصاحبه إلى الانتحار إذا أصابته كارثة.

ونفس المنطق هذا قال به فيلسوف النفعية الشهير جون ديوي الذي رأى أن الأفكار والمثل العليا والمبادئ مجرد وسائل وذرائع يستعين بها الإنسان فيتوجه سلوكه إلى حيث تتحقق مطالبه ورغباته[2].

إن الغالبية الكاسحة من الشعوب الإسلامية تجهل «قيمة الإيمان»؛ لأنها لا تعلم مدى المأساة التي يخلقها الفراغ الإيماني في الغرب، وكيف يتحول الإنسان إلى مريض غارق في معاناة كالجحيم، وكيف تصدر عنه أفعال مثيرة للاشمئزاز[3].

٢- من لا يعرف الإيمان بالله وبالآخرة، حين يعلم أن الدنيا فترة بلا معنى وبلا هدف ينقضّ عليها محاولاً افتراس أكبر جزء منها في صراع شرس محموم عنيف مع كل المنهمرين على مكاسب الدنيا.. صراع تتلاشى فيه كل الصفات الإنسانية.. لتعود صراعا بين كائنات أخرى.. بين الأنياب والمخالب والأظافر.

ومن لم يُقْتَل نَهشًا وتَقطيعًا في هذا الصراع خرج منه مهدود الجسد، مهموم البال.

---

(١) فيلسوف أمريكي ومن أشهر فلاسفة «النفعية».

(٢) د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص٦٥، ٦٦.

(٣) لقد آثرت ألا أذكر نماذج من هذه الأفعال مراعاة لشعور القارئ الكريم، ولكن حسبي أن أشير إلى أنه وجدت «مدرسة فنية» تمارس الرسم بـ «البراز»، وأن الانترنت يحتوي على مواقع تقدم للمشاهد «لذة» تعذيب البشر.

ولذلك لم يعد العمل -في عصرنا المادي هذا- شيئًا يتم لأنه من احتياجات الإنسان وغرائزه، وإنما أصبح نشاطا يؤدى لزيادة الإنتاج وتعظيم الثروة المالية، ولذا لا يبحث الإنسان في ظل المنظومة المادية عن العمل الذي يحبه و«يستمتع» به، بل عن العمل الذي يحقق له الثروة، ولقد اختفى يوم العمل الذي كان يبدأ في التاسعة وينتهي في الثانية، ليأتي يوم عمل يبدأ في الثامنة أو التاسعة ثم ينتهي في الخامسة أو السادسة، هذا فضلا عن أن العمل نفسه أصبح يريد الإنسان – الآلة، ذلك الإنسان الذي يستطيع وبكفاءة إنجاز أعلى إنتاج في أقل وقت وبأقل التكاليف[1].

فالإنتاج والربح والمال هو الإله الجديد في هذه الحياة الجديدة التي لا تضع الله والآخرة في حساباتها.. حياة يصير شعارها ما قاله المتنبي في لحظات هم وغم:

والظلم من شيم النفوس، فإن تجد ذا عفة، فلعلّة لا يظلم

ويُعتبر الفيلسوف الألماني الشهير «نيتشه» مثالاً ناطقا على هذه الحالة، لأنه الفيلسوف الذي أعلن وبوضح أن الحياة لا مجال فيها للأخلاق ولا للرحمة ولا للشفقة، ومن عباراته الشهيرة قوله «أين هي أعظم مخاطرك؟ إنها في الشفقة»! بل إنه يصل إلى حالة موغلة في التطرف حين ينادي على الفقراء والضعفاء بأنه يجب عليهم أن يساعدوا المجتمع على أن يتخلص منهم، يقول: «الضعفاء العجزة يجب أن يُفْنَوْا! هذا هو أول مبدأ من مبادئ حُبِّنَا للإنسانية! ويجب أيضًا أن يُساعَدوا على هذا الفناء».

نيتشه كان الأجرأ والأقوى والأوضح والأكثر تعبيرا عن الفلسفة الغربية، وكانت فلسفته متناسقة مع مبادئه، لأنه ببساطة أعلن «موت الإله» وكان يرفض تمامًا أن يبقى في الوجدان الإنساني بقايا من القيم التي تتحدث عن الإنسانية والرحمة والأخلاق، لقد كان يرفض ذلك تمامًا ويطلق عليه «ظل الإله» أي الآثار والشوائب التي بقيت في حياة البشر حين كانوا يتصورون وجود إله.

من المهم أن يعلم المسلمون، بل كل المؤمنين بإله، أن نيتشه أصابه الجنون قبل أن

(١) انظر: د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٥١: ١٥٣.

يموت. وإن في ذلك لعبرة.

عبرة يبدو أن الشاعر والناقد الإنجليزي الشهير ت. س. إليوت[١] استلهمها، فاعتبر أن البديل عن الإيمان بالإله هو أن يتحول الإنسان إلى دموي مدمر ومفجر للحروب، قال: «إن لم تتخذ لنفسك إلها، فلابد أن تقدم احتراماتك لهتلر وستالين»[٢].

٣- ثمة نتيجة ثالثة يصل إليها من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، تلك هي ذلك النموذج العبثي المهمِل، الذي لا يعنيه أي شيء، لا يهتم أن يتحلى بقيمة أو معنى، ولا يفكر في أن يكون له هدف ورسالة، وليس شيء يمكن أن يُمثل له قداسة أو رمزا.

هذا الصنف الثالث هو الوجه الآخر للصنف الثاني غير أنه كان أكثر «مسالمة» مع الحياة من حوله فلم يدخل معركة الأنياب والمخالب والأظافر. كما كان الوجه الآخر للصنف الأول غير أنه كان أكثر «كسلًا» فلم يهتم لأن يفكر في معنى الحياة ولا فلسفتها ولا ما قبلها ولا ما بعدها.

***

الإيمان وحده هو الذي يصوغ نظرة جميلة لهذا الكون، وهذه الحياة.

نظرة ترسل بالرحمة لكل كائن على هذه الأرض «من لا يرحم لا يُرحم»[٣]، حتى عند الذبح يجب أن تكون رحيما «وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»[٤].

نظرة ترحم الصغير، وتوقر الكبير، «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا»[٥].

---

(١) توماس ستيرنز إليوت (T. S. Eliot) (١٨٨٨ - ١٩٦٥) من أشهر الشعراء والنقاد الإنجليز، فاز بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٨م.

(٢) صموئيل هنتنجتون: صدام الحضارات، ترجمة طلعت الشايب، دار سطور، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م. ص١٥٨.

(٣) متفق عليه. البخاري (٥٦٥١)، ومسلم (٢٣١٨).

(٤) مسلم (١٩٥٥).

(٥) أبو داود (٤٩٤٣) والترمذي (١٩٢٠) وقال: حسن صحيح، وهذا لفظ الترمذي. وصححه الألباني في التعليق عليهما.

نظرة رحمة وعطف على الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين والأرامل والثكالى والشيوخ.

الدنيا – في هذه العين – هي الإصلاح بين الناس، والمشي في قضاء حوائجهم، عيادة المريض وصلة الرحم، مواساة المحتاج، وعون المكروب، والإحسان إلى الجار، و..، و...، و.....

نظرة لا ترى الدنيا وحدها، ولكن ترى من خلفها عالمًا آخر أكثر رحابة وجمالاً وسعادة لمن استطاع إصلاح هذه الدنيا ونشر القيم والمبادئ فيها.. حتى وإن لم يستفد منها هو، لأنها نظرة تورث فعل الخير ولو لم يكن ثمة مقابل، حتى ولو انتهت كل هذه الحياة؛ «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[1].

نظرة لا يمكن أن يصيبها توتر أو قلق أو اكتئاب.. ولا يمكن أن تفكر في الهروب أو الانتحار، لأن الرزق مضمون عند الله ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وكذلك العمر مضمون «لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها»[2].

فإذا أصابتها الدنيا، لم ينسفها الندم والحسرة لتقول: «لو أني فعلت كان كذا وكذا»[3] بل تعلم في يقين مطمئن أنه ﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ٥١].. قائلة في ثبات وقور «اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها»[4].

الإيمان وحده هو الطريق إلى السعادة في الدنيا، وإلى السعادة في الآخرة.

نحن في حاجة إلى الإيمان لكي نشعر بطعم الحياة الهادئة التي لا تتزلزل حين المصيبة، ولا تصيبها السكتة القلبية من الفرح، لأننا سنؤمن أنها طالت أم قصرت فهي ستنتهي حتما.

---

(١) رواه أحمد (١٣٠٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩). وقال شعيب الأرناءوط في التعليق على مسند أحمد: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٢) رواه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصححه الألباني في التعليق على سنن ابن ماجه

(٣) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٤) رواه مسلم (٩١٨).

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۞ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۞ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٠- ٢٣].

نحتاج للإيمان لكي نتحرر من الخوف.. لأننا سنخاف من الله وحده..

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۞ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣- ١٧٤].

نحتاج للإيمان لكي نكون بشرا تمتلئ حياتنا بالتراحم والتعاطف والتقدير والتكافل والمساعدة.. فالدنيا كلها أقل من أن نتقاتل عليها فننسى في صراعنا هذا معاني الرحمة والرفق والعدالة والإحسان.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ۞ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۞ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ۞ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٢- ٣٥].

لكي نفعل الخير دون انتظار الشكر ودون طلب الأجر.. نفعله لأنه خير؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

لكي نرى جمال الكون المتناغم الهادئ، لا هدير معركته الدامية.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

[الأنعام: ١٢٥].

لن أقول الآن: لكي ندخل الجنة، إنما أريد أن أثبت أن «من لم يدخل جنة الدنيا لن يدخل جنة الآخرة» كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١].

وجنة الدنيا هي الإيمان.

الإيمان.. هو القادر على صناعة حياة رائعة.. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وخروج الإيمان من القلب، يعني نار الآخرة بعد الاكتواء بكل نيران الدنيا وهمومها وقلقها ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾

[طه: ١٢٤].

الإيمان من أساسيات الحياة، أو بعبارة المؤرخ الأمريكي ول ديورانت[٢]، «ضرورة حضارية»، يقول: «من الضروري أن يكون بين الناس بعض الاتفاق في العقائد الرئيسية وبعض الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة، أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود، لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته، وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدها قبل أن يخطفها الموت»[٣].

---

(١) نقل ذلك عنه تلميذه الإمام ابن القيم: الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص٦٧.

(٢) ول ديورانت (Will Durant): (١٨٨٥-١٩٨١م) واحد من أشهر وأهم المؤرخين في العصر الحديث، له العديد من المؤلفات القيمة منها: (قصة الفلسفة)، و(دروس التاريخ)، و(أبطال التاريخ)، و(العقول والأفكار الكبيرة في كل العصور)، ولكن يظل أعظم ما كتب هو موسوعته الشهيرة (قصة الحضارة) التي تقع في ٤٢ مجلدًا -في نسختها العربية- والتي عكف على تأليفها لمدة أربعين سنة، ويتميز ديورانت بأنه مفكر إنساني متسامح واسع الأفق وغير متعصب. ويمكن للقارئ أن يرى دليلا على هذا في الجزء الثالث عشر من «قصة الحضارة» الذي عرض فيه لتاريخ الحضارة الإسلامية.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة، ١/ ٧.

الإيمان.. اليقين

والإيمان الذي نعنيه والذي يستطيع تغيير الحياة ليس أي إيمان، وليس هو ذلك الشيء الذي يعتقده كثير من الناس، ليس المجادلة الكلامية التي تحفل بها كتب علم الكلام والجدل، ليس أن يكتب في الأوراق الشخصية كلمة «مسلم».. إنه الإيمان الذي يعني اليقين، إيمان يخلو من الشك والتردد، ويرتفع عن أن يباع ويشترى، ويخرج عن دائرة المساومات، فالمؤمن حقًّا هو الذي «**يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[(١)] كما قال حبيبنا ﷺ في تشبيه بليغ يعبر عن معنى اليقين.

يقول ابن القيم: «اليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال القلوب التي هي من أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره»[(٢)].

هذا هو الإيمان الذي نعنيه، واليقين الذي نريد أن نصل إليه، أو نلتمس منه.. اليقين الذي تتناثر معه كل الشكوك وكل الهموم وكل المشكلات..اليقين الذي يجعلك تعبد الله كأنك تراه.. تحبه وتخشاه كأنك تراه.. تستحيي منه كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك.

قال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب. وقال ابن عطاء: على قدر قربهم من التقوى أدركوا من اليقين[(٣)].

هذا اليقين هو السعادة.. فالسعادة شعور نفسي ينبع في داخل النفس ولا يأتي إليها من خارجها، كما أنه لا يتوفر بالإمكانيات المادية وسبل الراحة..

إن وجود اليقين في القلب، يرسل فيه نبضات السعادة ليضخها إلى كل أنحاء النفس

(١) متفق عليه. البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).
(٢) ابن القيم: مدارج السالكين ٢/ ٣٩٧.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٩٨.

البشرية. ألا ترى أنك لو امتلكت اليقين في الله القوى القدير العظيم... الودود الغفار الرحمن... المعز المذل المهيمن.. السميع البصير، ترى أنك امتلكت حقيقة نفسك وحقيقة الكون وحقيقة الحياة؟؟

حينما تتحرك في الحياة معتمدا على قوة قاهرة قادرة جبارة عظيمة، وهى في ذات الوقت ترحمك وتحميك وتحفظك وترعاك، تملك إعزازك وتملك إذلالك أو تملك إعزازك، وإذلال من يعاديك، لأنها تهيمن على كل هذا الكون وكل ما فيه وكل من فيه... حينما تتحرك وفي صدرك هذا الشعور، هل تستطيع الدنيا كلها أن تنال من قوتك واعتزازك بنفسك وثباتك على الحق؟؟ هل تستطيع الدنيا كلها وكل من فيها وما فيها أخذ حبة من رزقك أو لحظة من عمرك؟؟

الشعور بأنك تعيش تحت لواء الحق، وفي رعاية الله.. شعور يعنى: السعادة وراحة البال والاطمئنان.

قال النهرجوري: إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة والرخاء عنده مصيبة[١].

اليقين بأن هناك آخرة هى بالنسبة للدنيا كالبحر بالنسبة للقطرة فيه، القطرة التى سيخرج بها إصبعك إذا أدخلته في البحر، كما قال حبيبنا ﷺ «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[٢].

هذا اليقين يحميك من أثر كل كارثة في هذه الدنيا، كما يزهدك في كل شيء سيأتى بالحرام، ذلك أن هناك ما هو أكثر وأفضل منه في الآخرة.

ما لذى يمكن أن يعيقك أو يخيفك أو يقلقك في كل هذه الحياة، إذا كان في قلبك هذا اليقين؟

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «اليقين الإيمان كله»[٣].

(١) ابن القيم: مدارج السالكين ٢/ ٤٠٠.
(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).
(٣) البخاري ١/ ٧.

«اليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب. بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك، وراء هذا الحيز الصغير المحدود»[١].

«اليقين أن لا تُرْضِي الناس بسخط الله، ولا تحمد أحدًا على رزق الله، ولا تلوم أحدًا على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهة كاره، وإن الله بقسطه وحلمه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»[٢].

«وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون. وعَمَلُ القوم إنما كان عليه، وإشاراتهم كلها إليه، وإذا تزوج الصبر باليقين وُلِد بينهما حصول الإمامة في الدين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذرايات: ٢٠]. وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

وأخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]»[٣].

* * *

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ١/ ٤١.
(٢) ابن القيم: الفوائد، ص١٤٧.
(٣) ابن القيم: مدارج السالكين ٢/ ٣٩٧.

لماذا نحتاج إلى اليقين؟

وقبل أن نخطو في طريق تثبيت الإيمان وترسيخه في قلوبنا، أو – بلفظ آخر – الوصول إلى هذا اليقين، فلابد أن نعرف منتهى الطريق، ما الذي سيثمره هذا المجهود؟ وما مقدار التغيير الذي سيحدث في النفس وفي الكون وفي الحياة بعد الوصول إلى «الإيمان الراسخ» أو «اليقين».

للحصول على السعادة:

على نحو ما سبق وذكرنا، فالحياة كلها والكون كله بما فيه ومن فيه ليس أكثر من نظرتك أنت إليه.. هذه النظرة والتصور الذي بداخلك هو ما يصنع شعورك تجاه نفسك وتجاه الكون والحياة والناس.

إذا أردت أن تتشاءم، ستجد كل شيء أمامك يساعدك على هذا التشاؤم، ويدعم هذه النظرة السوداوية إليه، على حين أنه إذا انتهت لك مشكلة واحدة فألقت في نفسك شعاع الأمل، وتسرب هذا الأمل إلى نظرتك.. ستجد الكون كله يدعم عندك هذا الأمل ويقويه.

الكون كله، والحياة كلها، ليست إلا نظرتك أنت إليها.

وهذه النظرة تصدر أصلا من داخل نفسك البشرية، فلن تتغير أبدا بتغير الإمكانيات والظروف ووسائل الراحة.. فكل هذه الأشياء مجرد طلاء يوحي لمن ينظر إليك من بعيد بأنك سعيد أو تعيس.. مطمئن أم مضطرب.. مرتاح البال أم متوتر وقلق، لكنها لا تصنع هذا الشعور.. لأن هذا الشعور يصدر من داخلك أنت.

وهذه حقيقة كونية يثبتها الكون كل يوم، وكل ساعة.. ولا يمكن أن لا تكون قد سمعت بمنتحر كره الحياة وفضل الخروج منها – برغبته وإرادته – رغم ما يبدو للناس من سعادته وغناه وتوفر سبل الراحة له.

وكذلك الفقير الذي يعيش مكدودًا طول النهار، وربما طول الليل.. لكنه يتمتع براحة بال وهدوء واستقرار يحسده عليه الأغنياء.

والأرقام خير دليل، وقد اتضح أنه لا علاقة بين مستوى دخل الفرد وبين معدلات الانتحار في العالم، فدولة مثل لوكسمبورج التي تحتل المركز الأول في مستوى دخل الفرد، هي نفسها التي تحتل المركز الخامس والعشرين في قائمة أعلى معدلات الانتحار في العالم. وأمريكا التي تحتل المركز الثاني في مستوى دخل الفرد، تحتل كذلك المركز الثالث والأربعين في قائمة أعلى معدلات الانتحار، وقبل أمريكا بخطوتين تأتي النرويج في المركز الحادي والأربعين في قائمة معدلات الانتحار، رغم أنها في المركز الرابع عالميا في مستوى دخل الفرد، ورغم أن سويسرا في المركز الخامس عالميا في مستوى دخل الفرد، إلا أنها أيضًا في المركز التاسع عشر في معدلات الانتحار.

ورغم أن النيجر هي الدولة الأكثر فقرا في العالم إلا أنها تختفي من قائمة معدلات الانتحار، وتختفي كذلك سيراليون من قائمة المنتحرين، بينما هي قبل النيجر مباشرة في قائمة الدول الأكثر فقرا، وكذلك غينيا بيساو وبوركينا فاسو ومالي، وهذه هي الدول الأفقر في العالم، ولكن لا وجود لها في قائمة معدلات الانتحار[1].

فصناعة السعادة إذن لابد أن تنبع من صناعة نظرتك لنفسك وللكون وللحياة، وإذا أردت أن تكون سعيدًا.. فأنت بلا شك في حاجة إلى تغيير زاوية النظر، تغيير القناعات والأفكار المتوارثة.

وهذه النصائح البسيطة هى الهدف الأكبر الذي حاولت كتب (السعادة) وكُتَّابها في الغرب أن يغرسوها في نفس الإنسان هناك، كى يتخلص من العناء والاضطراب والقلق وأمراض العصر المادى الشرس.

ومن أشهر الكتب في هذا المجال كتب (دع القلق وابدأ الحياة) و (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس؟) لديل كارنيجى، وهو كاتب عالمى في هذا المجال، لكن

(١) مأخوذ من مقارنة قائمة الدول الأعلى في دخل الفرد، بقائمة الدول الأعلى في نسب المنتحرين، من خلال الموسوعة الحرة «ويكيبيديا».

العجيب والغريب أن هذا الرجل الذي صاغ للناس قواعد السعادة تقول بعض المصادر أنه مات منتحرًا!!

وسواء صحت هذه المعلومة أم لا، فإن الصحيح بيقين أن مجرد المعرفة بطرق السعادة وقواعدها لا تفيد شيئًا، لأنها معرفة نظرية ليست أكثر، أو هى معلومات متراكمة داخل العقل والتفكير.. تنطلق من العقل لا من القلب، مستقرة في الرأس لكنها لا تستقر في الصدر.

لماذا؟؟ لأنها ليست عقيدة.. ليست مغروسة داخل القلب، لا تنبع منه فتستطيع حينئذ أن تغير نظرتك للكون وللحياة.. مجرد معرفة نظرية ليست أكثر، قد تستفيد منها في بعض الأمور في الحياة.. لكنها لا يمكن أن تغيرك أنت في أعماقك.

إن هذا هو ما عبر عنه بوضوح وببساطة الجغرافي القديم سترابو حين قال منذ ألفي سنة تقريبًا: «إنك في معاملتك لحشد من النساء، على أقل تقدير، أو معاملتك لأية مجموعة من الناس اجتمعت كما اتفق، لا تستطيع بالفلسفة أن تؤثر فيهم، إنك لا تستطيع أن تؤثر فيهم بالعقل أو أن تقنعهم إقناعا بضرورة الوقار والورع والإيمان، كلّا، بل لا بد لهم من (الدين) أيضًا»[1].

هنا نبدو في حاجة إلى الدين، إلى الإسلام الذي يصنع الإيمان بهذه النصائح البسيطة المعروفة، فهو يصنع الإيمان.. بمعنى أنه يصنع العقيدة المغروسة والثابتة في داخل القلب.. وهى هنا بالفعل تستطيع تغيير نظرتك للحياة.. لتحصل على السعادة في تلقائية.

اندهش الشيخ محمد الغزالى ذات مرة حين قرأ كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) لديل كارنيجى، حين رأى أن كل المبادئ التى وضعها كارنيجى في كتابه هى مبادئ إسلامية جاء بها رسول الله ﷺ منذ أكثر من ألف سنة، فقرر أن «يؤسلم» الكتاب، فأخرج كتابه (جدد حياتك) الذي كان يعلق فيه على مقولات كارنيجى بالآية والحديث وأقوال أعلام الإسلام.

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٩٧.

ولـذلك بـدأ الإسـلام بإعـادة صـياغة هـذه الـنفس البشريـة، ولـيس إعـادة صـياغة الظروف والملابسات.. وحين تمت صناعة الشخصية المسلمة، نزلت الآيات والأحكام التي تصنع الظروف والملابسات.. أليس شيئًا مثيرا للتأمل أن يقضي رسول الله ﷺ أكثر من نصف عمره الدعوي محاولاً تثبيت كلمة (لا إله إلا الله) داخل النفوس؟؟

من المثير أيضًا أن الإسلام لم يغير «الشخصية الجاهلية» إلى «شخصية مسلمة» بناءً على معرفة نظرية، بل من خلال إيمان عميق ويقين صادق.

إن فشل المعرفة النظرية في صناعة التغيير الحقيقي أمر تكشَّف لعلماء التنمية البشرية، والملاحظ لكتب السعادة يلحظ بوضوح أنها تطورت من تقديم نصائح وأساليب مبتكرة للإنسان، كما في كتب ديل كارنيجي مثلا (وهو توفي منذ نصف قرن) إلى مرحلة أخرى، وهي «زرع قناعات» جديدة داخل النفس، ولذلك فهي تحاول «صناعة الإيمان» ولكنه الإيمان بالنفس وطاقتها العظيمة، والإيمان بالعقل وقدراته الهائلة الكامنة، والإيمان بأنك تستطيع، حتى إن اسم العلم الذي غزا العالم وانتشر واشتهر كان واضحا وهو «البرمجة اللغوية العصبية» (NLP)، وهو علم يستهدف إعادة «برمجة» العقل البشري.

الإيمان هو كلمة السر، غير أن الإسلام يطلب بالإيمان بأمرين تحديدا: الله.. واليوم الآخر..

الله.. واليوم الآخر، هذان العنصران هما أصل العقيدة الإسلامية، وهما أصل السعادة..

الإيمان بالله -وليس مجرد المعرفة العقلية بوجوده- هو الذي يحرر الإنسان من كل هَمٍّ ومن كل غمٍّ.. لأنه يؤمن أن الله لا يُقَدِّر له إلا الخير، فهو أرحم به من الأم بولدها.

هو الذي يحرر الإنسان من كل خوف ومن كل ذل ومن كل ضعف، لأنه يؤمن بأن الله فوق كل قوة ومصدر كل عزة وقوة كل ضعيف.

هو الذي يخفف عن الإنسان ضغوط الحياة ومشاكلها المتشعبة المتراكمة، لأنه يؤمن أن الله يُيَسِّر الرزق، ويعطي الفضل، ويسبغ النعم.

هو الذي يزرع الإقدام والقوة والشجاعة في داخل النفس لأنه؛ يؤمن أنه في رعاية الله وفي حفظ الله وتحت عين الله.

والإيمان باليوم الآخر، هو الذي يكبح عند الإنسان جماح الطمع والانكباب على الدنيا؛ لأنه يؤمن أن في الآخرة ما هو خير من هذا وأفضل.

وهو الذي يمنح الصبر على البلاء والضراء.. لأنه – مهما كان - بلاء قليل في دنيا ستزول، وستأتي دار لا بلاء فيها.

فلهذا قد صارت المعادلة بسيطة: دنيا قليلة ستزول، وهي تحت هيمنة الله العلي العظيم.

من أين تأتي الهموم والغموم والقلق إذًا؟؟

واسمع هذه القصة اللطيفة التي تبين الفارق الضخم في طبيعة وأثر النظرة إلى الكون يحكيها ر. ف. بودلي[1] تحت عنوان «عشت في جنة الله» قال:

«في عام ١٩١٨ أوليت ظهري للعالَم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر إفريقية الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغنامًا، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام حتى أنني ألفت كتابًا عن محمد ﷺ عنوانه «الرسول» وقد كانت تلك الأعوام التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرُّحل من أمتع سِنيّ حياتي وأحفلها بالسلام والاطمئنان والرضى بالحياة. وقد تعلمت من عرب الصحراء التغلب على القلق، فهم -بوصفهم مسلمين- يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذا سهلًا هينًا.

(١) ر. ف. بودلي: (رونالد فيكتور بودلي R. V. Bodley) كولونيل بالجيش البريطاني، عَمِلَ في وحدة الجيش البريطاني بالعراق، والأردن ومسقط، وعندما ترك الخدمة ذهب ليعيش بين عرب الصحراء، وكتب كثيرًا عن الصحراء وعن الشرق، وأشهر كتبه: (الرسول؛ حياة محمد = The messenger; the life of Mohammed)، وهو مترجم للعربية، كما له أعمال أخرى. وكتابه (الرسول) من الكتب التي سعت لتحسين صورة النبي (صلى الله عليه وسلم) عند الغربيين، لكنه حفل بالعديد من الأخطاء والتناقضات.

فهم لا يلقون أنفسهم بين براثن الهم والقلق على أمر، إنهم يؤمنون بأن ما قُدِّر يكون، وأنه لا يصيب الفرد منهم إلا ما كتب الله له، وليس معنى ذلك أنهم يتواكلون، أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا، ودعني أضرب مثلًا لما أعنيه:

هبت ذات يوم عاصفة عاتية، حملت رمال الصحراء، وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي الرون في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، حتى أحسست كأن شعر رأس ينتزع من منابته، لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون، ولكن العرب لم يشكوا إطلاقا، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة: (قضاء مكتوب). ولكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل إن يودي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى... قال رئيس القبيلة: «لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خلقاء بأن نفقد كل شيء، ولكن حمدًا لله وشكرًا، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد»[1].

هذا هو ببساطة (الإيمان) أو – بمعنى أدق – (حقيقة الإيمان) أو (اليقين).

ولأنه إيمان ويقين، فلا بد أن ينبع من داخل القلب نفسه، فيؤثر على نظرة الإنسان للحياة ليعطيه السعادة.

كان رسول الله ﷺ يعبر عن هذا المعنى، معنى انبعاث السعادة من القلب بقوله **«ألا وإن في الجسد لمضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[2].

ولأن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الإنسان، وهو العليم الخبير، لن يوجد إيمان فَعَّال يستطيع أن يغير حياة البشر مثل الإيمان بالله وباليوم الآخر. لا الإيمان بالنفس أو العقل أو الطاقات والقدرات كافٍ لأن يصوغ الحياة التي يتمناها البشر، ربما لا يعلم

(١) من كتابه (wind in the saharaa). نقلا عن: ديل كارنيجي: دع القلق وابدأ الحياة، ص٣٠٣: ٣٠٥.
(٢) متفق عليه: البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

الكثيرون أن رئيس الاتحاد العالمي للبرمجة اللغوية العصبية، الأمريكي الجنسية، قد أسلم[1].

إن هذه المعلومة بحد ذاتها كافية لأن ندرك أن الإيمان الحقيقي هو الإيمان الإسلامي، وبغير هذا لن تكون السعادة في متناول اليد. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

لأنه ضرورة:

ونحتاج لليقين لأنه ضرورة، هذا ليس اكتشافا اكتشفه العلماء والمفكرون، بقدر ما هو حاجة ملحة ونداء ضروري، فالنفس البشرية بطبيعتها مخلوقة على أنها تسكن إلى قوة قاهرة قادرة.

وقد عرض ول ديورانت صاحب موسوعة (قصة الحضارة) لأمر الدين -بأسلوبه الفلسفي الممتع والمهتم برصد الشذوذ، ثم الانطلاق منها لإثبات القاعدة- فاستطاع أن يجمع خمس حالات لأناس في أدغال إفريقيا وأمريكا والإسكيمو لا يبدو أن لهم دينًا، ولم تُرصد لهم عبادات «معروفة». غير أنهم يعترفون باحتمال وجود إله، أو يؤمنون بنوع معين من الآلهة.

وإذا كان ديورانت- بما هو معروف عنه من الدأب العلمي والتقصي- لم يأت إلا بخمس حالات من مجاهل التاريخ والجغرافيا، فهذا يؤدي بنا إلى أن نعلم أن الأصل في الإنسان التدين، واعتناق الدين ولو كان خُرَافيًّا. يقول ديورانت: «على أن هذه حالات نادرة الوقوع، ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعًا اعتقادًا سليما؛ وهذه -في رأي الفيلسوف- حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية»[2].

وما قاله ديورانت يؤكد المقولة المنسوبة إلى المؤرخ الإغريقي بلوتارك: «لقد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور.. ومدن بلا مدارس.. ولكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد».

---

(١) وذلك يوم يوم الأحد ١٥/ ٧/ ٢٠٠٧م، الموافق غرة شهر رجب ١٤٢٨هـ، في مملكة البحرين. والخبر منشور على موقع قناة العربية على الإنترنت بتاريخ الأحد ٨ رجب ١٤٢٨هـ - ٢٢ يوليو ٢٠٠٧م.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، ١/ ٩٨، ٩٩.

أي أن الإيمان والوصول إلى اليقين أو السعادة.. ليس فقط علاجا لمشاكل الحياة ونكدها وهمومها، بل هو في ذات الوقت مطلب ينبع من داخل النفس ويلح عليها، وفراغ القلب من الإيمان هو في حد ذاته أزمة لا بد لها من حل.

يقول الإمام ابن القيم:

«في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أُعطِيَ الدنيا وما فيها لم تُسَدّ تلك الفاقة منه أبدًا»[1].

إذن.. فهي غريزة، وطالما أنها غريزة، فلا بد لها من إشباع وإلا ساد حياة الإنسان الحيرة والقلق، مهما كان ما حوله من إمكانيات الراحة.. هذه الغريزة يُعَبَّر عنها في الإسلام بـ (الفطرة)، ومعنى الفطرة: الطبيعة التي خلق الله بها الناس ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وهذه الفطرة أو الطبيعة الإنسانية أو الغريزة الإنسانية لا تستقيم ولا يمكن إشباعها إلا بهذا اليقين.. بهذا الإيمان.. بهذا الدين. وستظل هذه النفس تحتاج إلى هذا الإيمان في كل العصور وفي كل الأزمان، لأنها ستظل من مخلوقات الله.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

هذه الفطرة العميقة في نفس الإنسان، وهذا الشعور الملح بالاحتياج إلى القوة العليا القادرة القاهرة.. هو هذا العهد الذي أخذه الله من كل بني آدم في فَجْر الخَلْق، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فهذا الشعور المُلِحّ، وهذا الاحتياج الحنون هو مثل شوق الغريب إلى وطنه، لأن الإنسان في

(١) ابن القيم: مدارج السالكين ٣/ ١٦٤.

الأصل مخلوق على الفطرة التى تتسق مع الإسلام وتتجانس معه، ففي الحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»[١]. وفي حديث آخر: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية: «على هذه الملة- فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه..»[٢].

يَخْلُص لنا أن هناك عهدًا من الله على فطرة البشر أن توحده، وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة؛ يخرج بها كل مولود إلى الوجود؛ فلا يميل عنها إلا أن يُفسِد فطرتَه عاملٌ خارجيٌ عنها! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى وللضلال. وهو استعداد كذلك كامن تُخْرِجه إلى حيز الوجود ملابساتٌ وظروفٌ.

إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة «الإنسان» وحده؛ ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله - وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله، موصولة به غير منقطعة عنه، محكومة بذات الناموس الذي يحكمه - بينما هي تتلقى كذلك أصداءه وإيقاعاته المعبرة عن تأثره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة..»[٣].

وقد نُشر مؤخرا كتاب عالمة الأديان البريطانية كارين أرمسترونج «قضية الإله» (The Case of God) في سبتمبر ٢٠٠٩[٤]، والذي تقول فيه بوضوح بأن التجربة الإنسانية تثبت أن الإنسان «كائن ديني»، وبعده بشهرين في (نوفمبر ٢٠٠٩م) نشر كتاب الصحفي الإنجليزي نيكولاس واد، الذي جعل له عنوانا موحيا «غريزة الإيمان» (The Faith Instinct)، وفيه يتحدث عن الإنسان مخلوق وداخله «جين» الله. وقبل نيكولاس واد كان دين هامر قد كتب كتابه الشهير الذي أثار زوبعة في وقته (سبتمبر ٢٠٠٤م) «الجين الإلهي» (The God Gene) لأنه قال بوجود جينات في جسم الإنسان هي المسئولة عن تعلقه بالروحانيات، وهو ما شكل صدمة للغرب الذي

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) متفق عليه: البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣/ ١٣٩٤.

(٤) ترجم إلى العربية بعنوان «الله لماذا»، ونشرته دار سطور، القاهرة.

يستهجن أن يكون الدين من طبيعة الإنسان[1].

وكحال جميع الغرائز، لا يمكن كبتها أو تجاهل ندائها المستمر، وإلا تحولت الحياة إلى عذاب حقيقي، وفي الاية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ وهذا في الدنيا قبل الآخرة.. ففي الآخرة ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۝ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير الضنك: «فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعَّم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك».

بل ويلفت الإمام ابن كثير النظر إلى معنى في غاية العمق، معنى أن تتحول حياة الإنسان إلى ضنك؛ لأنه يعرف أن ما هو فيه من وسائل الراحة لن يدوم، فهو إما سيموت فيتركه، أو تأتي عليه مصيبة فتسلبه منه، «ويقال أيضًا: إن قوما ضُلاَّلًا أعرضوا عن الحق وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكا، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلفا لهم معايشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب. فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيشته فذلك الضنك»[2]. «والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع. إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه، ضنك الحيرة والقلق والشك، ضنك الحرص والحذر؛ الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت... إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضًا وعمقًا وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان»[3].

ولقد كتب إيليا أبو ماضي قصيدة «الطلاسم»، وهي مثال حقيقي لحيرة من فقد الإيمان.

---

(١) كان العنوان التوضيحي للكتاب هذه العبارة: How Faith is Hardwired into our Genes، أي «كيف أن الإيمان مستقر في جيناتنا».

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٢٣.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٥.

جئت، لا أعلم من أين، ولكنّي أتيت ولقد أبصرت قدّامي طريقا فمشيت
وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أم أبيت كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري!

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود؟ هل أنا حرّ طليق أم أسير في قيود؟
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود؟ أتمنّى أنّني أدري ولكن...

لست أدري!

وطريقي، ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟ هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور؟
أأنا السّائر في الدّرب أم الدّرب يسير؟ أم كلانا واقف والدّهر يجري؟

لست أدري!

ليت شعري وأنا عالم الغيب الأمين أتراني كنت أدري أنّني فيه دفين؟
وبأنّي سوف أبدو وبأنّي سأكون؟ أم تراني كنت لا أدرك شيئًا؟

لست أدري!

أتراني قبلما أصبحت إنسانا سويّا أتراني كنت محوًا[1] أم تراني كنت شيّا؟
ألهذا اللّغز حلّ أم سيبقى أبديّا لست أدري. ولماذا لست أدري؟

لست أدري!

أيّها القبر تكلّم، وأخبرني يا رِمَام[2] هل طوى أحلامك الموت وهل مات الغرام؟
من هو المائت من عام ومن مليون عام أيصير الوقت في الأرماس[3] محوا؟

لست أدري!

إن يك الموت رقادا بعده صحو طويل فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل؟
ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرّحيل؟ ومتى ينكشف السّرّ فيدري؟..

لست أدري!

إن يك الموت هجوعا يملأ النّفس سلاما وانعتاقا لا اعتقالا وابتداءا لا ختاما

---

(١) مَحْوًا: أي عدمًا.

(٢) رِمَام: جمع رِمَّة وهي العظام البالية.

(٣) الأرماس: جمع رَمْس، وهي القبر الذي يستوي مع الأرض ولا يرتفع عنها.

فلماذا أعشق النّوم ولا أهوى الحِمَاما[1]؟ ولماذا تجزع الأرواح منه؟..

لست أدري!

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور؟ فحياة فخلود أم فناء ودثور[2]؟

أكلام النّاس صدق أم كلام الناس زور؟ أصحيح أنّ بعض الناس يدري؟

لست أدري!

إن أكن أُبْعَث بعد الموت جثمانا وعقلا أترى أبعث بعضا أم ترى أبعث كُلاّ؟

أترى أبعث طفلا أم ترى أبعث كهلا ثمّ هل أعرف بعد الموت ذاتي؟

لست أدري!

يا صديقي، لا تعلّلني بتمزيق السّتور بعدما أقضي فعقلي لا يبالي بالقشور

إن أكن في حالة الإدراك لا أدري مصيري كيف أدري بعدما أفقد رشدي؟

لست أدري!

إنّني أشهد في نفسي صراعا وعراكا وأرى ذاتي شيطانا وأحيانا ملاكا

هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذاك اشتراكا؟ أم تراني واهما فيما أراه؟

لست أدري!

أنا لا أذكر شيئًا من حياتي الماضية أنا لا أعرف شيئًا من حياتي الآتية

لي ذات غير أني لست أدري ما هيه فمتى تعرف ذاتي كنه ذاتي؟

لست أدري!

إنّني جئت وأمضي وأنا لا أعلم أنا لغز، وذهابي كمجيئي طلسم[3]

والّذي أوجد هذا اللّغزَ لغزٌ مبهم لا تجادل ذا الحِجَا[4] من قال إنّي..

لست أدري!

* * *

(١) الحِمَام: الموت.

(٢) الدثور: الانقراض والانتهاء.

(٣) الطلسم: هي الشيء الغامض.

(٤) ذا الحجا: ذا العقل والفطنة.

حلاوة الإيمان ولذة اليقين[1]

على عكس حيرة المرتابين، تلك التي رأيناها على سبيل المثال في «طلاسم» إيليا أبي ماضي، فلقد سجل تاريخنا العظيم كلمات تتفجر بمعانى السعادة التى سالت من القلوب التى تشربت معنى اليقين.

يقول الإمام ابن القيم: «فإنه (أي القلب) لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز له إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان، لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى».ثم ينقل لنا الإمام ابن القيم بعضا من أقوال من استشعروا السعادة في القرب من الله تعالى.

«وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– يقول: إن في الدنيا جنة، مَنْ لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها. قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه – أو نحو هذا الكلام.

وكل من له قلب حى يشهد هذا ويعرفه ذوقًا»[2].

---

(١) لعل القارئ الكريم قد لاحظ أننا نستخدم لفظ (اليقين) تعبيرا عن قوة الإيمان، وهذا لكى نبتعد عن إشكالية الخوض في الإيمان الذي يقابله الكفر، وحدود قوة وضعف الإيمان، وهل من لا يستشعر هذه المعانى تنتفي عنه صفة الإيمان، وغيرها من الأمور التى مجالها كتب العقيدة.

(٢) ابن القيم: مدارج السالكين ١/ ٤٥٤.

ويحكى الإمام ابن القيم عن شيخه وأستاذه ابن تيمية الذي كان في اضطهاد من السلطة حتى سجن ومات في سجنه فيبدو شديد التعجب من أحوال شيخه، يقول: «عَلِم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»[1].

وكان من أحوال الإمام ابن تيمية حين سجنه أنه كان يردد تلك العبارات التى حفظها التاريخ ورددها بعده كل مؤمن مضطهد: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري؛ إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة. وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بَذَلْتُ مِلْء هذه القاعة ذهبًا ما عَدَلَ عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله. وقال لي مرة: المحبوس من حَبَس قلبه عن ربه تعالى والمأسور من أَسَرَه هواه»[2].

وأنشد الدكتور يوسف القرضاوى وهو في السجن الحربى في أيام اضطهاد عبد الناصر للإخوان المسلمين قصيدته النونية وهى أكثر من ثلاثمائة بيت منها:

ضع في يدي القيد ألهب أضلعي ... بالسوط ضع عنقي على السكين
لن تستطيع حصار فكرى ساعةً ... أو نزع إيماني ونور يقيني
فالنور في قلبي وقلبي في يدي ... ربي، وربي ناصري ومعيني
سأعيش معتصمًا بحبل عقيدتي ... وأموت مبتسمًا ليحيا ديني

---

(١) ابن القيم: الوابل الصيب ص٦٧.

(٢) السابق

وفي موضع آخر يقول، حينما تم منع الكتب وقراءة القرآن في الزنازين:

سُـدُّوا عـلى البـاب كـي أخلـو إلى ... كتبي فلي في الكتب خير خدين[١]

وخذوا الكتاب فإن أنسىَ مصحفًا ... أتلـــوه بالترتيـــل والتلحـــين

وخذوا المصاحف إن بين جوانحي ... قلبًــا بنـــور يقينـــه يهـــديني

الله أســـعدني بظـــل عقيـــدتي ... أفيستطيع الخلق أن يُشقوني؟[٢]

وللإمام أبي حامد الغزالي، حجة الإسلام، كلام هو بحث في غاية الإمتاع في موضوع اللذة التى تغمر القلب الذي يعرف الله معرفة الإيمان واليقين، شرح فيه ما هي هذه اللذة، وكيف تحدث، ثم تدرج في الحديث عنها وشرح معناها وضرب الأمثلة لتقريب المعنى حتى وصل بمنطق سهل وأخاذ إلى أن لذة اليقين بالله هي أقوى اللذات جميعا، يقول:

«فصل في بيان أن أَجَلَّ اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يُتَصَوَّر أن يُؤْثِر على ذلك لذةً أخرى إلا من حُرِم هذه اللذة».

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذة. ولذتها في نَيْلِها المقتضى طبعها الذي خلقت له[٣]؛ فإن هذه الغرائز ما رُكِّبَتْ في الإنسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع. فغريزة الغضب: خُلِقَت للتشفي والانتقام فلا جرم[٤] أن لذتها في الغلبة والانتقام. وغريزة شهوة الطعام مثلا خُلِقَت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم أن لذتها في نيل هذا الغذاء، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم. فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها. فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وقد تُسَمَّى العقل، وقد تسمى البصيرة الباطنة، وقد تسمى نور الإيمان واليقين، وهذه

---

(١) خدين: صديق

(٢) انظرها كاملة في ديوانه: «نفحات ولفحات».

(٣) نيلها المقتضي طبعها الذي خلقت له: أي أن لذة كل غريزة في الإنسان تتحقق بالحصول على ما يُشبعها على وفق الشيء الذي خلقه الله لها ليحقق إشباعها ومتعتها.

(٤) فلا جَرَمَ: بمعنى لا عَجَبَ

الغريزة خُلِقَت لِيُعْلَم بها حقائق الأمور كلها، فمقتضى طبعها المعرفه والعلم وهى لذتها كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها، وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة، حتى إن الذي يُنْسَب إلى العلم والمعرفة ولو في شىء خسيس يفرح به، والذي يُنْسَب إلى الجهل ولو في شىء حقير يَغْتَمُّ به؛ فالعالم باللعب بالشطرنج -على خسته- لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بِذِكْر ما يعلمه. وكل ذلك لِفَرْط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال، ولذلك يرتاح الطبع إذا أُثْنِي عليه بالذكاء وغزارة العلم؛ لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به.

ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم؛ حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويُخْبِر بذلك يجد له لذة..

فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها.

وليت شعرى هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومُكَمِّلها ومُزَيِّنها ومُبْدئها ومُعِيدها ومُدَّبرها ومُرَتِّبها؟ وهل يتصور أن تكون حَضْرَةٌ في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين؟

فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغى أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار.

وبهذا تبين أن العلم لذيذ وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره في

مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين.

فينبغي أن يُعْلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات، أعني: لذة الشهوات والغضب ولذة سائر الحواس الخمس... وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مُؤْثَرَة[١] على غيرها؛ فإن المُخَيَّر بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة عُلِم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل...

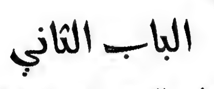
ولذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التى هى أعلى اللذات الغالبة على الخَلْق، وغاية العبارة عنه أن يقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وإنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٢].

* * *

(١) مؤثرة على غيرها: بمعنى مُفَضَّلة على غيرها.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين، ٤/ ٣٠٧: ٣٠٩ (باختصار)





- منهاج السور المكية في تعريف الله للعباد.
- التأمل يفضي إلى اليقين؟
- كيف نظر سلفنا الصالح إلى التأمل؟
- تحذير شديد ومهم..



منهاج السور المكية في تعريف العباد بالله

لكى نصل إلى الطريقة المثلى التى نزرع بها اليقين في قلوبنا، فعلينا بتلقائية أن ننظر إلى منهج رسول الله ﷺ الذي بدأ به دعوته، وكذا خصائص القرآن الكريم في سُوَرِه المكية التى نزلت لتخاطب الناس تُعَرِّفهم بالله لكى تزرع فيهم -من خلال هذا الخطاب- الإيمان بالله واليقين فيه.

فإذا كان معروفا أن النبى ﷺ أمضى في مكة أكثر من نصف عمر الدعوة لا يشغله إلا أن يؤمن الناس بالله ويوقنون بالآخرة، عرفنا مدى أهمية البداية من نفس هذه النقطة.. نقطة الإيمان بالله واليقين بالله، والاستسلام لأمر الله عن حب وطواعية.

تقول عائشة -رضى الله عنها: «أول ما نزل منه- أي القرآن- سورة من المفصل[١] فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدا. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]. وما نزلت سورة البقرة والنساء (الغنية بالأحكام والتشريعات) إلا وأنا عنده[٢].

فكيف كانت السور المكية تخاطب الناس لتزرع فيهم هذا الإيمان وهذه العقيدة؟

من المهم أن نلاحظ أن القرآن المكى لم يعالج قضية العقيدة بشكل نظرى.. إنما كان يعرضها ويعالجها بصورة يختلط فيها نداء العقل الواضح باستثارة الروح والنفس لتشاهد الأدلة على إبداع الله لهذا الكون وعلى أحقيته بهذه العبادة.

---

(١) المفصل من القرآن يبدأ من سورة ق وقيل غير ذلك. وسمي بذلك لقصر سوره وقرب انفصال بعضهن من بعض. (من تعليق د. مصطفى البغا محقق صحيح البخاري).

(٢) رواه البخاري (٤٧٠٧).

ولا نبالغ إذا قلنا: إن المحور الأساسي في القرآن المكي كان هو عرض خلق الله، وقدرته وإبداعه في الخلق، على عيون الناس ونفوسهم وعقولهم، إلى جانب الرد على شبهات الملحدين والمشركين، والترغيب والتثبيت للمؤمنين، والتهديد والتخويف للكافرين.

كان القرآن يوصل إلى الناس الإيمان بالله من خلال دفعهم إلى التأمل والتفكر في خلق الله في الكون، وفي النظر إلى التاريخ وكيف كانت الأمم تؤمن وتكفر، وفي النظر إلى أسماء الله تعالى وصفاته.

إن النظر في كون الله، وفي حركة التاريخ، وتأمل أسماء الله جل وعلا وصفاته، يرسل إلى القلب والعقل والروح في وقت واحد رسائل تمتلئ بالصفاء والوضوح والجمال.. رسائل لا تملك أمامها الفطرة المغروسة في نفس الإنسان إلا أن تستجيب لها وتشتاق إليها لولا ما قد يغلف القلب من جهل أو فساد.

«لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة «الإنسان» بما في وجوده هو وبما في الوجود من حوله من دلائل وإيحاءات.. كان يستنقذ فطرته من الركام؛ ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها؛ ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها»[1]، وعامة فإن السور المكية تزخر بهذه المعاني واللمحات والتأملات، ثم التساؤلات الموحية أو المستنكرة.. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠] ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾... وهكذا.

فالقضية الأساسية للسور المكية هي إثارة تأمل الناس لكي يتفكروا من خلال عدة عناصر:

١) التأمل في كون الله تعالى.

٢) التأمل في خلق النفس البشرية.

٣) التأمل في حركة التاريخ ومصائر الأقوام السابقين.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢/ ١٠١٢.

٤) التأمل - من خلال ما سبق- في أسماء الله تعالى وصفاته وذكر نعمه وآلائه ورحمته وعفوه وغفرانه وقدرته وقوته وحكمته...

ثم استعمال هذه العناصر في التأكيد والتدليل على الله، وعلى وجود اليوم الآخر، وما فيه من نعيم للمؤمنين، ومن عذاب للمشركين.

وإذا أردنا أن نأخذ مثالاً على هذا المنهج في السور المكية، فلربما كان مثالاً مُوَفَّقًا إذا حاولنا استكشاف سورة الأنعام- على سبيل المثال- فكل سورة في القرآن لها مذاقها الخاص - وهي مكية، وتكاد كل آية فيها تتفجر بمعاني القدرة على الخلق، وإبداع الخلق، ولفت الأنظار إليه.. ثم اللمسات واللمحات الإيمانية التي تذهب بالعقل والقلب والروح في وقت واحد نحو توحيد الله تبارك وتعالى.

وفي شرحه الموجز لسورة الأنعام يقول الشهيد سيد قطب: «إنها- في جملتها- تعرض حقيقة الألوهية».. تعرضها في مجال الكون والحياة، كما تعرضها في مجال النفس والضمير، وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود، كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون.. وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية والنشأة الحيوية والنشأة الإنسانية، كما تعرضها في مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين.. وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون، وتواجه الأحداث، وتواجه النعماء والضراء، كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة، وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة.. وأخيرا تعرضها في مشاهد القيامة...

وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية، وتطوف بها في الوجود كله، وراء ينابيع العقيدة وموحياتها المستسرة والظاهرة في هذا الوجود الكبير... في ملكوت السماوات والأرض، تلحظ فيها الظلمات والنور، وترقب الشمس والقمر والنجوم. وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات، والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها؛ وتقف بها على مصارع الأمم الخالية، وآثارها البائدة والباقية، ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر، وأسرار الغيب والنفس، والحي يخرج من الميت والميت يخرج من الحي، والحبة المستكنة في ظلمات الأرض، والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم، ثم تموج بالجن والإنس، والطير والوحش،

والأولين والآخرين، والموتى والأحياء، والحفظة على النفس بالليل والنهار..

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس، وأقطار الحس.. ثم إنها اللمسات المبدعة المحيية، التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال.. وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر، جديد نابض، كأنما تتلقاه النفس أول مرة؛ وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان!...

وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة، تبلغ حد «الروعة الباهرة» ... وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة، وبالحيوية الدافقة، وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة!...

هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية.. قضية الألوهية والعبودية.. تعالجها بتعريف العباد برب العباد.. من هو؟ ما مصدر هذا الوجود؟ ماذا وراءه من أسرار؟ من هم العباد؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود؟ من أنشاهم؟ من يطعمهم؟ من يكفلهم؟ من يدبر أمرهم؟ من يقلب أفئدتهم وأبصارهم؟ من يقلب ليلهم ونهارهم؟ من يبدئهم ثم يعيدهم؟ لأي شيء خلقهم؟ ولأي أجل أجلهم؟ ولأي مصير يسلمهم؟.. هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك.. من بثها في هذا الموات؟.. هذا الماء الهاطل. هذا البرعم النابت. هذا الحب المتراكب. هذا النجم الثاقب. هذا الصبح البازغ. هذا الليل السادل. هذا الفلك الدوار.. هذا كله من وراءه؟ وماذا وراءه من أسرار، ومن أخبار؟.. هذه الأمم، وهذه القرون التي تذهب وتجيء، وتهلك وتستخلف.. من ذا يستخلفها؟ ومن ذا يهلكها؟ لماذا تستخلف؟ ولماذا يدركها البوار؟ وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء؟؟؟...

وسياق السورة يسوق على هذه القضية (أي قضية الألوهية) أدلته في تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة؛ والتي تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية، من كل درب ومن كل باب!»[1].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢/ ١٠١٦: ١٠١٨.

اسمع الآن هذه الآيات من سورة الأنعام:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۞ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٤-٦].

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٣-١٤].

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٨-٣٩].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۞ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦-٤٧].

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۞ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٥٩-٦٠].

﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۞ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ

فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۞ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۞ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

[الأنعام: ٩٥- ١٠٤].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ربما أنت بحاجة الآن إلى فتح المصحف وقراءة سورة الأنعام بتدبر وخشوع.

* * *

التأمل يؤدى إلى اليقين

إذا عرفنا -مما سبق- أن الله تبارك وتعالى عرّف نفسه إلى عباده ليؤمنوا به عن طريق استثارة حواسهم لتتأمل، ثم تتفكر في إبداع الله في الكون وفي النفس وفي سنن التاريخ وفي أسمائه وصفاته، فهذا يعنى أن هذا هو الطريق الصحيح -إن لم يكن الوحيد- للوصول إلى الإيمان الحق أو.. اليقين.

قال الله تعالى عن سيدنا إبراهيم، كيف تم يقينه بالله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الإنعام: ٧٥]. قال ابن كثير: «أي: تبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله، عَزَّ وجل، في ملكه وخلقه، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه»[1].

فالطريق إلى اليقين يبدأ بالتأمل في ملكوت السموات والأرض، وهذا التأمل متوفر لكل البشر وليس قاصرا على إبراهيم عليه السلام وحده، وقد أنكر الله على من لا يؤمن به أنهم لا يتأملون فيما حولهم من خلق السموات والأرض، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

وتكاد تكون كل آيات القرآن التى تدعو إلى التأمل والتفكر تنتهى أو يسبقها ما يؤكد أنها طريق الإيمان واليقين؛ ففي الآيات المشهورة بسورة آل عمران والتى قال عنها رسول

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٩٠.

الله ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[(١)]، كانت الآيات تصف قومًا تأملوا في خلق السموات والأرض، ثم أدى بهم هذا التأمل إلى الخشوع لله والخضوع له، ثم دعاء وإنابة وتبتل ورجاء.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى...﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩٥]. وكان رسول الله ﷺ إذا قام الليل قرأ هذه الآيات[(٢)].

وسئل الأوزاعي عن معنى التفكر في هذه الآيات لكي ينجو القارئ من الويل، فسكت قليلا ثم قال: يقرؤهن وهو يعقلهن[(٣)]. وقال القرطبي في التفسير: «فختم تعالى هذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته؛ إذ لا تصدر إلا عن حي قيوم قدير وقدوس سلام غني عن العالمين؛ حتى يكون إيمانهم مستندا إلى اليقين لا إلى التقليد»[(٤)]. وقال الشوكاني: «إن مجرد التفكر فيما قصه الله في هذه الآية يكفي العاقل ويوصله إلى **الإيمان الذي لا تزلزله الشبه ولا تدفعه التشكيكات»**[(٥)].. وهذا هو اليقين.

بل إن أثر التأمل هذا قال به غير المسلمين أيضًا، فلقد كان من ضمن اقتراحات ألبرت شتيفزر، أحد الذين تخصصوا في فلسفة الحضارة، لحل مأساة الإنسان المعاصر أن

---

(١) رواه ابن حبان (٦٢٠) وغيره، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨).

(٢) متفق عليه: البخاري (١٨١) وهذا لفظه، ومسلم (٧٦٣).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٩٠.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٣١٠.

(٥) الشوكاني: فتح القدير، ١/ ٦٦٣.

يتم تخصيص ثلاث دقائق كل مساء للنظر في السماء المرصعة بها لا نهاية له من النجوم تمهيدا لإصلاح الأحوال التي نعيش فيها اليوم[١].

***

كثير من آيات القرآن الكريم، بعدما تعرض آيات تحث على التأمل سواء في النفس أو في الخلق أو في سنن الله أو في اسمائه وصفاته.. تعقبها بالأمر بالتسبيح أو التعظيم، وهي لفتة قرآنية تدل على تأثير التأمل في النفس والعقل والروح، فيكون التسبيح أو الاستغفار أو ذكر الله بعد هذا التأمل شيئًا آخر تمامًا، إذ أنه الآن يخرج من صميم القلب المتأثر.

«ومثل ذلك ما جاء في سورة الواقعة، فبعد أن توالت الآيات التي تتحدث عن قدرة الله المطلقة والتي من شأنها أن تجعل المتفكر فيها يستشعر عظمته سبحانه وقيوميته.. بعد ذلك طالبتنا الآيات بالتسبيح... إن هذا التسبيح بلا شك سيكون تسبيحا مختلفا عن ذلك الذي نردده بألسنتنا وقلوبنا تسبح في بحر الدنيا»[٢].

جرب هكذا أن تقرأ الآيات القادمة في خشوع وتأمل:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۞ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۞ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ۞ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ۞ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٧ - ٧٤].

سبحان ربي العظيم.. سبحان ربي العظيم.. سبحان ربي العظيم.

إنها الآن تخرج من القلب حقا، تخرج من قلب يستشعر مدى ضآلته في هذا العالم

(١) د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص٣٢.

(٢) د. مجدي الهلالي: الإيمان أولا، فكيف نبدأ به، ص ٢٠٥.

الضخم الرهيب الذي يخضع فيه كل شيء لله الواحد القهار، بل إنه حتى ضئيل أمام نفسه وفي داخله، حتى ذلك الجسد الصغير بالنسبة للعالم الهائل الاتساع يخضع لله ويسير بأمر الله، فحتى المنيّ الذي يخرجه هذا الجسم ليس لأحد يد في خلقه إلا الله وحده، حتى هذا السائل اللزج الذي هو سبب التكاثر والحياة، والذي يخرج من الجسم ليستقر في الأرحام، خارج عن قدرة البشر وعن خلق البشر..

وهكذا يكون الموت المحتوم ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۞ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٥٨- ٦٠].

وطالما أن أدق خصوصيات الجسم تخضع قوانينها ومسيرتها في الحياة لله تعالى وحده، فلا عجب إن كانت الزروع والثمار، ثم الماء والأمطار، ثم الأشجار والنار تخضع لله تعالى.

إنها هزات عنيفة للقلب:

﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩]؟

﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤]؟

﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩]؟

﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة: ٧٢]؟؟؟

هزات لا تترك القلب إلا خاضعًا مستسلمًا يعلن عجزه الكامل عن فعل أي شيء، ليكون خاضعا لهذا الأمر الإلهي العميق الجليل ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤].

وكل هذا من خلال النظر والتأمل في أبسط الظواهر في الحياة البشرية.

هكذا هو القرآن، ومنهج القرآن في تعريف الناس بالله تبارك وتعالى وفي حثهم على الإيمان به واليقين فيه.

«إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى؛ يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود؛ وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصورا كاملا لهذا الوجود. كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكير؛ وحياة للأرواح والقلوب، ويقظة في المشاعر والحواس. يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباح مساء

وهم غافلون عنها؛ ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والخوارق فيها!

إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الفذة الخارقة والمعجزات الخاصة المعدودة، كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيدا عن أنفسهم، ولا عن مألوف حياتهم، ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم.. إنه لا يبعد لهم في فلسفات معقدة، أو مشكلات عقلية عويصة، أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد.. لكي ينشئ في نفوسهم عقيدة، وتصورا للكون والحياة قائما على هذه العقيدة.

إن أنفسهم من صنع الله؛ وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته، والمعجزة كامنة في كل ما تبدعه يده، وهذا القرآن قرآنه، ومن يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوثة في الكون من حولهم، يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم، التي يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها؛ لأنهم لطول ألفتهم لها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها، يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها؛ فتطلع على السر الهائل المكنون فيها؛ سر القدرة المبدعة، وسر الوحدانية المفردة، وسر الناموس الأزلي الذي يعمل في كيانهم هم أنفسهم كما يعمل في الكون من حولهم؛ والذي يحمل دلائل الإيمان، وبراهين العقيدة، فيبثها في كيانهم، أو يوقظها في فطرتهم بتعبير أدق»[1].

***

وعلى هذا النهج كثير من الآيات القرآنية التى تثبت لنا أن القلب بالتأمل والتفكر يكون في حالة أخرى أكثر تهيؤا لقبول الإيمان ورسوخ اليقين.. بما انساب إليه من روائع الآيات التى تعرفه بالله تبارك وتعالى.

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ١ - ٥].

﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٦٦.

بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۞ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ١٧ - ٢٧].

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۞ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧- ٨٣].

وكثير من الآيات تبدأ بحمد الله الذي جعل وخلق وأبدع وأنعم، فالحمد (وهو ذكر من الأذكار التي يداوم عليها المسلم) يكون في هذه الحالة أوضح وأكثر تأثيرا وحيوية نابضة.

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۞ وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۞ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ١ - ٤].

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۞ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى

أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۞ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤٥].

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۞ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١ - ٢].

وعلى هذا النهج تسير الآيات خصوصا آيات السور المكية التى كان هدفها كما ذكرنا غرس الإيمان في القلوب وهدايتها إلى خالقها العظيم الجليل.

***

والتأمل في خلق الله وفي سننه يدفع القلب دفعا إلى طريق الله والإيمان به واليقين فيه، إلى الحد الذي يعتبر فيه عدم الإيمان شيئًا يثير التعجب والدهشة والاستغراب والاستنكار، وكم من آيات تحمل هذا الاستنكار لمن لم تهديه آيات الله وبدائعه، وصفاته تعالى، وسننه في كونه، وفي الزمان.. إلى الإيمان واليقين.

وفي سورة قصيرة كسورة الغاشية حين أراد الله تبارك وتعالى أن يسوق دليلا للإيمان بمشاهد الآخرة التى وصفتها السورة لكي يؤمن الناس بها، كان هذا النداء الذي يستحث العقول إلى التأمل لتصل إلى الإيمان بالآخرة، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ١٨].

بل كان القرآن الكريم يرى فيمن لم يهده ذلك التأمل والتفكر دليلا على فساد العقل، إذ لم يعد يعقل أو فساد الجوارح التى لم تعد تسمع أو تبصر، بما يعنى أن التأمل يوصل

-بطبيعة الحال- طالب الحق والساعي إليه بتجرد وحياد ودون تعصب أو انغلاق أو عناد، حتى لقد استحق قسم من الخلق أن يدخلوا جهنم إثر تعطيلهم لهذه الجوارح التي لم تهدهم إلى الله وإلى أسمائه وصفاته، فكانوا عند الله كالبهائم، بل وأضل من البهائم.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۞ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٧٩- ١٨٠].

وكانت آية مزلزلة حقا تلك التي أقسم الله فيها بذاته المقدسة الجليلة على أن يوم القيامة حق لا ريب فيه، لكن انظر كيف قَدَّم الله لهذه الحقيقة بآيات التأمل والتفكر، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠- ٢٣] ولعلها أكبر مصيبة وأشد كارثة يقع فيها الإنسان حين يعطل هذه الحواس التي وهبها الله له، والتي يستطيع أن يكتشف بها حقائق الكون والحياة فينجو من عذاب دائم.. ليستشعر لذة اليقين.. قبل أن يرى ويتذوق لذة الجنة، ونعيم القرب من الله تبارك وتعالى في الدنيا، ورؤية وجهه الكريم في الآخرة.

واسمع تلك الآيات التي تحمل معاني الرحمة والرفق الإلهي العميق، في ذات الوقت الذي تحمل فيه الاستغراب والاستنكار لوضع لا يتفق لا مع العقل ولا مع الروح، بل ولا حتى مع الحواس الظاهرة التي تناديها الآيات وتستحثها للعمل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الروم: ٧١- ٧٢] تأمل كيف تنادى الآيات على السمع ليستشعر كيف ستكون مشقته وإرهاقه لو أن الليل كان سَرْمَدًا أبديًا، وكيف تنادى على البصر ليستشعر كيف ستكون مشقته وإرهاقه لو كان النهار سَرْمَدًا أبديًا.

إنهما حالتان تبلغان درجة من العنت والضيق إلى حد الاختناق الرهيب بهذا الليل

الطويل الممتد اللا نهائي، الذي ليس له حدود، ذلك الظلام المستمر المديد، أو ذلك النهار الذي يطول ويطول حتى لا يُرى له آخر ولا تبدو له نهاية تبشر بشيء من راحة وسكون..

هنا يقول الله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٧٣].

إن قليلا من التأمل في حال انتظام الليل والنهار، ذلك الانتظام الضروري لموافقة الطبيعة البشرية، الضروري لتبلغ راحتها وتحيا في اطمئنانها، يبعث على الإيمان بأن خالق الإنسان هو هو خالق ذلك النظام، وأن استمرار هذا النظام من علامات ودلائل الرحمة التي يتصف بها هذا الخالق سبحانه وتعالى، ومن ثم الإيمان واليقين فيه، لكن الملفت للنظر، وهو ما يهمنا في مقامنا هذا، هو الكيفية التي استعمل بها القرآن مثل هذه الدلائل، لقد أحيطت هذه الدلائل من قبلها ومن بعدها بآيات تفرد الله تبارك وتعالى بالتوحيد والألوهية.

اقرأ مرة أخرى بقلبك:

﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لله وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الروم: ٧٠- ٧٥].

تعالى معي أخي الحبيب في رحلة قصيرة مع سورة النحل، فيها يقدم القرآن الكريم أدلته الواضحة من حياة الناس اليومية على وجود الآخرة وعلى استحقاق الله تبارك وتعالى بالحب والعبادة والألوهية.

يقول تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ ۞

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۞ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ۞ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۞ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ١ - ٢٢]. والقرآن الكريم يتفجر بمثل هذه الآيات التى لا تحتاج إلى أكثر من قلب خاشع وعقل حاضر ليستقبل هذه اللمسات القرآنية المبدعة والعميقة.

والمقام هنا لا يتسع لدراسة في هذا الأسلوب القرآنى البليغ الذي خاطب الناس بما يرونه ويشعرون به، ولفت أنظارهم إلى تلك الدقائق واللفتات واللمسات الرقيقة، التي تخاطب العقل والروح، وتنبه الحواس إلى الحقائق التي تنتصب أمامهم طوال الوقت، ثم استثمر حالة التأثر الطبيعي والتلقائي في الطَّرْق على إدراكات الحواس، وجوانب العقل، ومشاعر النفس ونبضات القلب لتؤمن بهذا الإله العظيم، و بهذا الدين، وباليوم الآخر.. حتى لا يخرج القارئ من قراءته للقرآن إلا وهو في حالة أخرى، لو كان له قلب أو ألقى السمع.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

***

بل إن الله – تبارك وتعالى – يقسم بكثير من مخلوقاته في كثير من الآيات القرآنية على أشياء كثيرة، وهذا دليل آخر ربما أقوى من كل ما سبق لما فيه من «قَسَم»، وما صيغ به من ألفاظ قوية.. دليل على الإبداع والفوائد المكنوزة في هذه المخلوقات، وهى لفتة تنبه الأذهان في كل العصور إلى ما تحويه تلك المخلوقات من القدرة المطلقة والحكمة المطلقة والنعمة المطلقة لله رب العالمين تبارك وتعالى.

فيقسم بالرياح تذرو الغبار، وبالسُحُب تحمل الماء، وبالسفن كيف تجرى على الماء بهذه البساطة واليسر، وبقسمة الأرزاق والأمطار.. لإثبات وعد الآخرة ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۞ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۞ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۞ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۞ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۞ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ١-٦].

ويقسم بالتين وبالزيتون وبجبل الطور.. على إحسانه – تبارك وتعالى – لخلق الإنسان ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۞ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١-٤].

ويقسم بالسماء وبالنجوم لإثبات وجود الرقابة الإلهية والإحاطة الإلهية بأفعال الإنسان. ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۞ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ١-٤] ثم – وبنفس القسم – يشير إلى عملية خلق الإنسان كدليل على قدرته – جل في علاه – على البعث في الآخرة ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۞ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥-٨].

ثم يقسم بالسماء الممطرة، والأرض التى تنشق عن الزرع في قوانين لا تتغير، على جدية هذه الحياة، وجدية هذا القرآن، وجدية وعد الآخرة. ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۞ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۞ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١١-١٤].

والآيات في هذا كثيرة أيضًا، وحسبنا في هذا المقام هذه الإشارات.

ومن العجيب والدليل على ثبوت هذا القرآن مدى الزمان، أن هذه المخلوقات التى أقسم الله بها هى بالذات ما يكتشف فيها إلى الآن روائع تعد إعجازا علميا لهذا الكتاب الخالد. فيثبت العلم الآن روعة اللفتة القرآنية في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۞ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۞ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥- ٨٠]؛ إذ يثبت الآن علميا أننا على الأرض قد نرى نور النجم في الليل في مكان، في حين أن النجم نفسه قد يكون انتقل إلى مكان آخر أو قد يكون حتى قد انفجر منذ مئات أو آلاف السنين.. وإن هذا النور هو المكان الذي كان فيه النجم منذ مئات أو آلاف السنين فأرسل منه هذه الأشعة التى وصلت إلينا بعد كل هذه المدة؛ فمكان النجوم ليس هو المكان الذي نتخيله وينبعث منه النور.

ولذلك كان الله تبارك وتعالى يقسم بمواقع النجوم لا بالنجوم ذاتها، وهو القسم الذي لم نعرفه حقا إلا في العصر الحديث، ومن يدرى.. ربما لم نعرفه بعد، وسيعرفه من يأتى بعدنا بما هو أكثر عظمة وإبهارا.

وكذلك إذ يقسم الله تبارك وتعالى بالنجم الثاقب الذي يسميه الله (الطارق)، أذكر أنه في حلقة تلفزيونية للعالم العالمى الجليل د. زغلول النجار، تحدث عن نجم معين لا يرسل ضوءا وإنما يرسل موجات صوتية تشبه الطرقات تمامًا، وهو بهذا اكتشاف علمى؛ إذ إن الصوت لا ينتقل في الفراغ، والكون فيما هو خارج الأرض يقبع في سكون تام، فيثقب هذا النجم هذا السكون الكونى بطرقاته فسمى النجم الطارق الثاقب.. وسبحان من خلق الكون وأنزل القرآن.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥- ١٦] إعجاز لم يكشف إلا حديثا، من خلال اكتشاف «الثقوب السوداء»، وهو الاسم العلمى لنجوم شديدة الكثافة إلى حد فائق التركيز، حتى إن الملعقة من مادتها قد تزن أطنانا.. هذه النجوم لا تسمح بخروج الضوء منها لشدة كثافتها لذلك لا تُرى، فتحتوى بهذا على كمية ضخمة من الطاقة تمكنها من ابتلاع أى جرم سماوى آخر لما فيها من جاذبية قوية.

وهذا التعبير القرآنى (خانس – أى غير ظاهر وغير مرئى– جارٍ كانس) أصدق وأكثر انطباقا على حالة النجم من الوصف المعروف له وهو (الثقب السود) لأنه ليس ثقبا، بل هو نجم.

وسبحان من خلق الكون وأنزل القرآن.

حينما يستشعر الإنسان أنه في ذاته إحدى صنائع هذه القوة المبدعة القادرة اللامتناهية العظمة والجلال، اللا محدودة الكمال والجمال.. تلك القوة التى تملك هذا الكون الشاسع المتناثر المنتظم في ذات الوقت بقوانين القدرة والجمال.

حين ينساب إلى الإنسان ذلك الشعور يرتجف القلب من العظمة والمهابة، ثم يرتجف من الخجل والتقصير في حق الله العلى العظيم الكبير الذي وسع الكون علما وإحاطة.

ثم ينكسر الكيان البشرى كله ذليلا مستسلما لهذا الفيض العظيم من الرحمة الرقيقة التى يتعامل الله تبارك وتعالى بها مع عباده الذين لا يملون من الخطأ ومن التقصير، انكسار ناتج عن تاريخ طويل من التقصير والخطأ والمعصية.. بل من الإصرار على الخطأ والتلذذ بالتقصير واشتهاء المعصية.

بل هو انكسار واستسلام ينسف تلك العنجهية والكبرياء الفارغ الذي يسكن قلب البشرى الضئيل الضعيف الحقير الذي تذله الذبابة وتطيح به عاصفة رياح، وتحطمه هزة أرضية بسيطة.. انكسار يعيد ذلك الكائن المنتفخ إلى أن يشعر بالحقيقة وبالكون، يشعر بصغره وضعفه وضآلته، وأنه لا يملك حتى أن يتحكم في نفسه، ولا في أجهزته التى تعمل في داخله دون أن يأذن، ودون أن يشعر، ودون أن يكون له عليها أى سيطرة أو تحكم.

انكسار يعيد الأمور إلى نصابها، ليعرف الإنسان قدر الله.. هذا القدر المجهول الذي كان السبب في كل تلك الكوارث التى تتالت على حياة الإنسان حين كان يعصي الله جهلا به وبقدره وبقدرته على العقاب، وسرعته في الحساب.

الجهل الذي أعاقه عن اكتشاف ذلك السيل المنهمر اللا منقطع من الرحمة عليه، حتى وهو في أشد المعصية، وهذا الشلال بل الشلالات من النعم المتوالية حتى وهو في أسوأ حالات الجحود والنكران.

انكسار يذيب قسوة القلب وبلادة الروح، يذيب تلك الحيوانية والشراسة والعنف التى تسكن إنسان العالم المادى الجامد البارد الصلب البليد، ويبدلها بلمسة إنسانية

تستشعر فيها حولها من الكون والناس والطبيعة وعالم الحيوان والنبات لمسات الإبداع والجمال والرقة والهدوء والانسياب المبهر..

إنه انكسار يعيد لحياة الإنسان روح الحياة، ومعنى الحياة، ولذة الحياة.

لكنه انكسار من نوع آخر..

رغم كل ما يحمله من انكسار وذل وخضوع واستسلام ورقة.. لكنه يختلف عن كل انكسار في أنه «انكسار لله».. انكسار لله وحده..

والانكسار لله ذو معنى آخر، وطعم آخر.. إنه انكسار مستحق لقوة لا تتصف بمجرد القوة والقدرة والقهر والجبروت، بل تتصف قبلها بالرحمة والرأفة والغفران والعفو.. هو انكسار للكمال المطلق الذي تسبق رحمته غضبه، وتسبق رأفته عدالته..

هو انكسار يفرضه الحب الهادر قبل أن تفرضه الخشية الرهيبة.. انكسار يلجأ به الإنسان إلى الله هاربا من كل الدنيا، ومن كل سطوتها وقسوتها ومعاناتها، مرتميا في رحاب الله باكيًا.. تمامًا كانطلاقة الطفل الصغير إلى حضن أمه ليجد في حضنها ملجأ من كل شيء خلف ظهره.

هذا اللجوء إلى الله تبارك وتعالى، هو الدخول في الأمان.. الطمأنينة.. الاستقرار، تمامًا.. تمامًا كما لا يشعر بالأمان فعلا إلا طفل في حضن أمه أو أبيه.. إنه هنا فقط يؤمن أن ذلك الحضن كفيل بأن يحميه من كل شيء، وأن يقضي على كل مشكلة، وأن يقتل كل فزع وكل رعب.

وهو لجوء المحب إلى حبيبه، شوقا وراحة وسكنا.. حب تفرضه المعرفة بعظمة الله ورحمته وعفوه وعطفه.. مع تكرار الخطأ وتكرار المعصية وتكرار الإساءة في جنبه تبارك وتعالى.

هذا الانكسار لله، والاحتماء بالله.. هو في ذات اللحظة مصدر القوة الهادرة والشجاعة الثائرة في عالم الأحياء ومجال الأرض.. الانطلاق من رحاب الله، ذلك الحصن الآمن، وتحت رعاية الله التي تشمل امتدادات الزمان والمكان، وتحت عين الله التي لا

تغفل ولا تنام ولا يعزب عنها مثقال ذرة.. هو انطلاق يحمل فيه كل معاني القوة، وينظر لكل قوة في الأرض نظرة استخفاف وازدراء واحتقار.

اليقين في الله تبارك وتعالى هو الذي يحول الإنسان إلى طاقة تغيير ترفع راية الله لتغسل هذه الأرض من كل قذاراتها وملوثاتها.. بل لتغسل قبل ذلك نفس الإنسان وروحه من كل أنجاسها ودنسها.

ترى.. ما الذي يتمناه الإنسان أكثر من استشعار الأمن، وزوال الخوف؟ بل قل: ما الذي يتمناه أكثر من زوال الخوف فقط.. ونحن نرى الخوف يفترسنا ويمنعنا من النهوض ومن إزالة طواغيت الأرض صغيرها وكبيرها.. حتى أصبح الناس يجتاحهم الرعب من شرطي، فضلا عن رئيسه، فضلا عن رؤسائه... حتى نصل إلى من يدعى أنه يملك العالم ومن ليس معه فهو ضده.

إنه انكسار لله نعم.. لكن وجهه الآخر استعلاء وجرأة وشجاعة في مواجهة كل قوة وكل صعوبة وكل أزمة وكل مشكلة.

هذا الانكسار، هو النتيجة التى يخرج بها المتأمل في كون الله وفي آياته.. إن آيات التأمل تزرع في الإنسان الشعور بأنه محاط بالوجود الإلهي من كل جانب ولا يملك من أمر نفسه – فضلا عن أمر غيره– شيئًا.. انظر كيف يخاطب الله هذا الإنسان وهو الذي لايملك حتى المنىّ الذي يخرج منه.. كيف يخاطبه الله في الزرع والثمار ثم الماء والسحاب ثم النار والشجر.

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۞ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٥٨- ٦٠].

فالزرع دليل شاهد: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣- ٦٥].

والماء الذي لا تقوم حياة البشر إلا به، كيف أتى؟ ومن ذا الذي جعله عذبا؟ وماذا لو تحول ذات يوم إلى مالح؟! ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ

نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨- ٧٠].

وتلك النار التي كان اكتشافها للإنسان «حادثا عظيما في حياته. ربما كان أعظم حادث بدأت منه حضارته»[1]، كيف كان سرها يختبئ في احتكاك فرعين من فروع الشجر، من ذلك الذي وضع ذلك السر في فروع الشجر، ثم أباح لاحتكاكهما أن يكشف السر المكنون؟

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۝ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧١- ٧٣].

إن هذا البشري الذي لا يملك أن يتحكم في عمليات تنفسه أو هضمه أو تفكيره أو نبضه وهي في جسمه هو.. كيف لا يمكن له أن ينكسر لمن يملك كل هذا فيوقفه متى يشاء وينعم به متى شاء؟

حتى تلك الأعضاء التي يرى أنه يملكها.. يده وعينه ورجله ولسانه وجلده.. لن يلبث قليلا إلا وتخرج من سيطرته لتشهد عليه أمام الله في يوم القيامة. ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩- ٢٠].

إذا شعر الإنسان بهذه الإحاطة الإلهية الكبرى، وبهذه الرحمة الإلهية المطلقة، وبهذه القدرة الإلهية البالغة.. فهذا طريقه -بلا شك- نحو اليقين.

اليقين الذي إذا ذاقه سيتذوق فيه كل سعادة الدنيا، وكل نعيم الآخرة.

«إن للكون- لو تدبر الإنسان واعتبر- لَمَوْقِعًا في النفس أي موقع، وروعة في القلب أي روعه، تلكم الأرض الخضراء مبسوطها وحالقها، وما يهتز عليها من مُلْتَفِّ النبات ومُعْشَوْشِب الروض، وتلكم الجبال الراسيات، والأنهار الجاريات، والبحار ذات الجرجرة والضجيج، والجلجلة والعجيج، وقبة الفلك الزرقاء، تعصف في أجوائها كل

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٦٩.

عاصفة هوجاء، تحدو السحب كل دجنة وطفاء، آنًا تَسِحّ بالديمة المدرار، وآونة بدفع الحريق وصواعق النار، ما هذه أيها الإخوان؟! بلى ما هذه؟!! أما ظاهرها فقد عرف العالم عنه شيئًا، وأما الباطن فلا وربكم ما عرف ولن يعرف، هذا سر عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كيماوي، إنما أولى بالمرء الإذعان والخشوع، ولَلْجهل هنا أَفْيَد من العلم، وما يستفيده المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره أكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره وكيميائه؟ ماذا صنع العلماء في أسرار الكون إلا أنهم زادوها خفاء واكتتاما بإلباسها براقع من الأسماء والاصطلاحات؟ هم يسمون البرق كهرباء، ويلقون الدروس والمحاضرات في ذلك، ثم يُوَلِّدون مثال هذا البرق من الزجاج والحرير. ولكن ما هو ذلك البرق؟ وما الذي أحدثه؟ ومن أين جاء؟ وأين يذهب؟ لا أكذب الله، قد أظهر العلم أشياء كثيرة، ولكن بئس ذلك العلم الذي يريد أن يحجب عنا جلال ذلك الكون الرائع الذي يتضاءل العلم في حضرته، ويذل لعزته وعظمته، ويطفو على جوه الهائل كريشة في مهب الريح، والحق يقال يا إخواني، إن هذا الكون على الرغم من العلم ودعواه لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات.

بل كفى بالزمن معجزة- بذلك الشيء الفائت العد والحصر، الدائم الكرّ والمرّ، المستمر الصمت والسكون، دائبا يجري ويتدفق عجِلًا ساكتا كتيار البحر الزاخر حيث نطفو فوقه وسائر الكون كخيالات تظهر ثم تغيب، وأنفاس لا تكاد تصدر حتى تبيد، أمَا كفانا بذلك معجزة؟ أليس ذلك جديرا أن يُلْجِم ألسنتنا فلا ننطق؟ وبماذا ننطق؟ يالله من هذا الكون الهائل؟... لعمري ماذا يقول الملحد المفكر -ولا أخال الإلحاد والتفكير يجتمعان- في هذه القوى الفعالة الدائبة المحدقة بنا، لا تكل ولا تني ولا تفتر، ولا أول لها ولا آخر ولا مبدأ ولا نهاية، ماذا يقول فيها إلا أنها معجزة رائعة، وقد يتساءل عنها المؤمنون فيقول أحدهم لأخيه «هي صنع الخالق» ثم يجيء العلم بمنظاره وآلاته فيجعل يُقَلِّبُها ويُديرها كأنما هي جثة ميتة توضع في الزجاجات وتباع في الحوانيت، ولكن العقل الإنساني السليم الفطرة ما زال يرى في هذا الكون شيئًا حيًّا، شيئًا يحار فيه الذهن، إلهيّ المرجع. أولى الأشياء بنا إزاءه -مهما بلغ علمنا- أن نحني الرأس له إجلالاً وننكس البصر

خشية ومهابة ونعبد إن لم يكن بالمنطق فبالصمت»[١].

ولعل القارئ الكريم يعجب حين يعرف أن الفقرات السابقة إنما هي محاولة الفيلسوف الإنجليزي الكبير توماس كارليل، لمعرفة كيف كان الإنسان البدائي ينظر إلى الطبيعة من حوله ويتأثر بها، فهي تأمل في تأملات الإنسان البدائي[٢].

***

إنه ينبغي أن نقف طويلا أمام هذه الفترة التي سبقت نزول الوحي على رسول الله ﷺ، فإنها الفترة التي انتهت بالحدث الفارق في التاريخ الإنساني كله؛ نزول الوحي وختم الرسالات وولادة خير أمة أخرجت للناس.

ليس من العبث أن تكون هذه الفترة.. فترة تأمل!

كان النبي ﷺ يخلو بنفسه في غار حراء فيتحنث فيه – أي يتعبد – الليالي ذوات العدد قبل أن يعود مرة أخرى إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها[٣]، أي أنها سلسلة من الخلوة ثم العودة للتزود بالطعام إلى خلوة أخرى.. وهكذا. وقد اختار ﷺ مكانه الذي يخلو فيه بحيث اجتمع له ثلاث مزايا: الخلوة، العبادة، النظر إلى الكعبة[٤].

إن هذه الفترة تحديدا أغرت الباحثين والدارسين لحياة محمد ﷺ ولتاريخ الإسلام، وخصوصا من غير المسلمين، بالتوقف أمامها طويلا، لمحاولة استكشاف هذا السر العجيب الذي ظهر فجأة في حياة محمد ﷺ، وفَجَّر كل هذه الحياة في شعب كان على هامش التاريخ، وجعل من القبائل المتقاتلة على التوافه أمة واحدة تقاتل من أجل الرسالة،

(١) توماس كارليل: الأبطال، ص١٠، ١١.
(٢) وإن كان كارليل لم يُوفق فيما بعد، حين قال بأن إعجاب الإنسان البدائي بهذه الطبيعة هو الذي جعله يعبد الشمس أو القمر أو النجوم أو غيرها من «جمال» الطبيعة. وذلك لأن الغربيين –العلميين– يعتقدون أن الإنسان البدائي كان أبسط من الإنسان المعاصر في عقله وتصوراته وأفكاره، ثم بدأ يتطور –وتتطور أفكاره– مع الزمن والحياة حتى نضجت، بينما يؤمن المتدينون بأن الإنسان الأول –وهو آدم عليه السلام– خلقه الله تعالى بيديه وعلمه الأسماء كلها، وكان عارفا بالله وبتوحيده، وبالكون وطبيعته المخلوقة، وبنفسه ودوره في الحياة.
(٣) البخاري (٣)، مسلم (١٦٠).
(٤) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٢/ ٣٥٥. «من قول ابن أبي جمرة».

أما المتعصبون منهم فقد سلكوا في تفسير ما حدث مسالك شتى، وأما المنصفون الموضوعيون فقد تحدثوا عن «سر التأمل».

يقول الفيلسوف الإنجليزي الكبير توماس كارليل في محاضرته الشهيرة عن محمد ﷺ، تلك المحاضرة التي يعتبرها المستشرق الإنجليزي الكبير مونتجمري وات علامة فارقة في تحسين صورة محمد ﷺ في الغرب[١]، وبداية لتقبل الناس له، يقول: «وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع إلى السكون والوحدة، دأب العرب وعادتهم، ونعمت العادة، ما أجل وأنفع ولا سيما لرجل كمحمد!! لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجي ضميره صامتا بين الجبال الصامتة، متفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية، أجل حبذا تلك عادة ونعمت- فلما كان في الأربعين من عمره وقد خلا إلى نفسه في غارٍ بجبل حراء قرب مكة شهر رمضان ليفكر في تلك المسائل الكبرى، إذ هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها قريبا من مكان خلوته فقال لها: إنه بفضل الله قد استجلى غامض السرّ واستثار كامن الأمر، وأنه قد أنارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء[٢]، وأن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشابا حقيرة وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له...» [٣].

وتستوقف هذه الفترة أيضًا نظر المستشرق والمفكر الفرنسي المعروف إميل درمنغم، والذي كانت حياته محاولة لتحسين صورة الإسلام في عيون الغربيين، وكان من المتخصصين في التاريخ الإسلامي في منطقة المغرب العربي، يقول في كتابه (حياة محمد):

«كان يقضي طويل الأيام في ذلك الغار متأملا عابدا، وما كان له أن يستغني عن العزلة، شأن أقوياء النفوس وذوي الجد من الرجال، ولم ينفك محمد عن الانقطاع حتى بعد أن أصبح رئيس دولة وصارت أمور السياسة والحرب تشغل باله لما في الانقطاع من مصدر القوة والاتزان والحكمة الذي لا يتضب معينه... وإننا لنتمثل محمدا في مدخل

---

(١) انظر مقدمة كتاب (محمد في مكة) لمونتجمري وات.

(٢) يعود سر هذه الصياغة الأدبية الراقية لأن كتاب كارليل (الأبطال) ترجمه أديب كبير فذ العبارة وهو الأستاذ محمد السباعي.

(٣) توماس كارليل: الأبطال، ص٧٢ وما بعدها.

حراء الصعبة الجافة مستلقيا على صخرة مطلة على السهل، وعلى مكة المتشبثة بشعاب جبل أبي قبيس، فإذا ما أقبل الليل رأى محمد أشباه العراة من الرعاة يعودون بغنمهم بين أصفر الغبار، وكان الهواء من الهدوء والصفاء ما استطاع محمد أن يسمع معه ثغاء الشياة ونقر عصي الرعاة على الحجارة، وشاهد اصفرار التلال الضارب إلى الحمرة بفعل أشعة الشمس الأخيرة، وكاد يرى لون الشجيرات الشائكة المناضلة عن حياتها مع الجدب.

ونظر محمد طلوع النجوم الأولى التي كان قد تأمل فيها غيرة مرة من شُرَف مكة أو من باب خيمة... وعَجِب من نظام الكواكب وانسجامها سابحة في الفضاء، وهذه الكواكب تكون في ليالي صيف الصحراء من الكثرة وشدة النور ما يُخيل معه إلى الإنسان أنه يسمع صوتًا لِلَمَعَانها كما يُسمع صوت نار موقد كبير.

والحق أن في السماء لآيات لأولى الأبصار، والحق أن العالم حافل بالأسرار، وأن العالم سرّ بنفسه، أفلا يكفي المرء أن يفتح عينيه وأذنيه ليرى ويسمع الحقائق؟ وهل يتطلب سماع أصوات ما وراء الكواكب غير قلب نقي ونفس صادقة وروح مستعدة؟

إن التأمل الطويل الطويل يُطهّر النفس وينبه روح المعاينة، ويؤدي إلى كشف ما وراء الحجب، ويحث على العمل عند الضرورة، وقد استطاع أكابر المتأملين أن يكونوا من المبدعين الذين لم يَمَلُّوا، والتأمل الصحيح يحمل بذور الحركة والتحرر من الهوى»[1].

أليس من اللافت للنظر والمثير للذهن أن تكون المرحلة الأخيرة في إعداد النبي ﷺ للرسالة مرحلة تأمل وتفكر وتدبر؟

❊❊❊

(١) إميل درمنغم: حياة محمد، ص٥٠: ٥٢، (باختصار).

التأمـــــل
يحملك إلى باب الهداية

«أليس من اللافت للنظر والمثير للذهن أن تكون المرحلة الأخيرة في إعداد النبي للرسالة مرحل تأمل وتفكر وتدبر؟».. هذا السؤال يسوق إلى سؤال آخر:

أليس يعني هذا أن الإنسان إذا فتح عينه وأذنه فتأمل وتفكر بصدق وإخلاص، كان على أبواب الهداية للحق الكامل، لا يحتاج فقط إلا إلى العلم أو الوحي ليعرف الله «حق المعرفة» ثم يعرف «كيف» يعبد الله خالق هذا الكون كما يحب ويشاء ويرضى؟

الجواب نعم، وفي التاريخ شاهد ودليل..

لقد كان للتأمل أثر عظيم في غرس وتعميق الإيمان في القلوب، إلى الحد الذي جعل بعضا من الجاهليين يرتفع عن مستوى الجاهلية التي حوله، ويتحرر من ضغط المجتمع الغارق في عبادة الأصنام، ليخط لنفسه طريقا جديدا تمامًا، فيصل إلى الهداية التي لم يكن ينقصها إلا ومضة علم..

أولئك هم الحنفاء.. وأشهر أولئك هو الشيخ الحكيم قُسّ بن ساعدة، فهذا الشيخ أفضى به تأمله إلى الحكمة، فعرف أن الذي خلق هذا الكون لا يُعبد حق العبادة، ورويت له الخطب الرائعة الزاخرة بالمعاني المتأملة في النفس والكون والحياة، وهو الذي قال:

في الـــــذاهبين الأولــــــين	مـــن القـــرون لنـــا بصـــائر
لَمـــــًا رأيـــــت مـــــواردا	للمـــوت لـــيس لهـــا مصـــادر
ورأيـــــت قـــــومي نحوهـــــا	تســـعى الأصـــاغر والأكـــابر
لا يرجـــــع المـــــاضي إليّ	ولا مـــن البـــاقين غـــابر
أيقنـــــت أنـــــى لا محـــــا	لـــة حيـــث صـــار القـــوم صـــائر

وخطب ذات يوم في الناس فقال: «أيها الناس اجمعوا، واسمعوا وعوا، من عاش

مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، مِهَاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور. ليلٌ داجٍ، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج. أَقْسَمَ قُسٌّ (يقصد نفسه) قسمًا حاتمًا: لئن كان في الأمر رضا ليكونن سخطا، إن لله دينًا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أَرَضُوا بالمقام فقاموا؟ أم تُرِكوا هناك فناموا؟».

وكان من شعره أيضًا، ما يؤكد أن التأمل أوصله إلى الهداية ومعرفة الحق، قوله:

هاج للقلب من جواه ادكار[1] … وليال خلالهن نهار

وجبال شوامخ راسيات … وبحار مياههن غزار

ونجوم تلوح في ظلم[2] الليل … تراها في كل يوم تُدار

والذي قد ذكرت دل على الله … نفوسا لها هدى واعتبار[3].

وممن كانوا من الحنفاء في الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل، وهو والد الصحابي الجليل سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان زيد لا يأكل من الذبائح التي تذبحها قريش، ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله؟!![4].

وكانت له رحلة في البلاد للبحث عن الدين الحق، حيث خرج إلى الشام ولقي

(١) ادكار: تَذَكُّر.

(٢) ظُلَم: جمع ظُلمة.

(٣) وردت أخبار قس بن ساعدة عبر حديث رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (٥٥)، والبيهقي في الزهد (٦٩٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢٥٩١) والبزار (٥٣٤٧). والحديث يحكي عن أن النبي سأل عنه ناسا من قومه، وأنه تذكر قسا يوم أن كان يخطب. وسائر طرق الحديث ضعيفة، ومن العلماء من رأى أن كثرة طرق الحديث يدل على أن له أصلا كالبيهقي وابن كثير في السيرة النبوية ١/ ١٥٢، وبرهان الدين الحلبي في السيرة الحلبية ١/ ٣٢١، ومنهم من ضعفه كابن حجر: الإصابة ٥/ ٥٥٢، والصالحي الشامي في سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٨٧، ومنهم من حكم بوضعه كابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٢١٣، والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ١/ ١٦٦، والألباني في السلسلة الضعيفة ١٢/ ٨٣٣، برقم ٥٩٠٦).
ونحن هنا لسنا في مجال إثبات الحديث ولا تحقيق صحته أو ضعفه، وإنما في مجال إثبات الرواية التاريخية التي تصف لنا حال قس بن ساعدة، بغض النظر عن صحة الحديث من عدمه، فبمقاييس الحكم على الرواية التاريخية لا على الحديث النبوي، نستطيع أن نقول باطمئنان أنها رواية تاريخية ثابتة.

(٤) البخاري (٣٦١٤)

اليهود والنصارى ثم أعلن أنه على دين إبراهيم حنيفا لا يعبد إلا الله[١].

وحكت عنه السيدة أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنها) قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري. وكان يُحْيِي الموءودة؛ يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيكها مؤونتها فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها[٢].

ومات زيد بن عمرو قبل أن يوحى إلى النبي ﷺ، فحين سئل عنه النبي ﷺ قال: «يبعث يوم القيامة أمة وحده»[٣].

ثم لدينا- بعدئذ- المثال المشهور، وهو ورقة بن نوفل ؓ الذي ترك الجاهلية وأنكرها، ثم بحث ونقب ودخل في النصرانية وقرأ كتبها وتبحر فيها، فما كان يحتاج بعد هذه الرحلة التأملية الفكرية إلا إلى أن تدخل عليه خديجة رضي الله عنها، ومعها زوجها الحبيب محمد، فيحكي له قصة الوحي ونزول جبريل، فحينها تكتمل الصورة ويكتمل الإيمان، بل ويكتمل في ذهنه خط التاريخ ليعلن:

«هذا الناموس الذي نزله الله به على موسى، يا ليتني فيها جَذَع[٤]، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك» فتعجب النبي وقال: «أَوَمُخْرِجِيَّ هم؟؟»، فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا»[٥].

وما لبث بعد هذا أن توفي قبل أن تبدأ قصة الإسلام على هذه الأرض، وقبل أن تبدأ المعركة التي كان يريد أن يشهدها لينصر دين الله نصرا عزيزا مؤزرا، ولكنه في الجنة كما أخبر النبي ﷺ، قال: «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس»[٦].

---

(١) البخاري (٣٦١٥)

(٢) البخاري (٣٦١٦)

(٣) الألباني: صحيح السيرة النبوية ص٩٤.

(٤) جذع : أي شاب صغير.

(٥) متفق عليه: البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٦) الألباني: صحيح السيرة النبوية ص٩٤.

لم يكن هؤلاء إلا أناسا فتحوا عيونهم وآذانهم، وأخلصوا في بحثهم عن الحق والحقيقة، فما لبثت آيات الله في الكون والحياة أن أخرجتهم عن ضلالات الجاهلية ووضعتهم على أبواب الإيمان، ونستطيع أن نقول بأنهم إذا أدركوا بعثة النبي ﷺ لكانوا السابقين إلى الإسلام، وأول فرسانه المخلصين.

والأمر لا يتوقف فقط عند تاريخ العرب في الجاهلية، بل يضطرد في تاريخ كل الأمم، لكن ضياع التواريخ المنضبطة للأمم القديمة أو ظروف كتابتها التي جعلتها أحيانا بيد رؤساء البلاط وكهنة المعبد، يقف عائقا كبيرا أمام استجلاء المذاهب الفكرية الموجودة في هذه الأزمنة بوضوح، غير أننا لا نعدم أمثلة عن متأملين أوصلهم التأمل مع الإخلاص إلى أبواب الإيمان.

فعلى سبيل المثال يذكر الشهرستاني صاحب كتاب «الملل والنحل» عن فيلسوف اليونان الكبير سقراط أنه «الحكيم الفاضل الزاهد من أهل أثينا، اشتغل بالزهد ورياضة النفس وتهذيب الأخلاق وأعرض عن ملذات الدنيا واعتزل إلى الجبل[1] وأقام في غاربه، ونهى الرؤساء الذين كانوا في زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان، فَثَوَّرُوا عليه الغاغة وألجئوا ملكهم إلى قتله فحبسه الملك ثم سقاه السم»[2]. ثم يذكر من كلام سقراط بعضا منها، فمن كلامه عن الإله قوله:

- إن الباري تعالى لم يزل هوية فقط وهو جوهر فقط، وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن اكتناه وصفه وحقيقته وتسميته وإدراكه؛ لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره، فهو المدرك حقا والواصف لكل شيء وصفا، والمسمى لكل موجود اسما، فكيف يقدر المسمى أن يسميه اسما؟ وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفا؟ فنرجع فنصفه من جهة آثاره وأفعاله وهي أسماء وصفات إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر المخبرة عن حقيقته وذلك مثل قولنا: إله أي واضع كل شيء وخالق أي مقدر

(١) هذه الخلوة تذكرنا بسيرة المتأملين جميعا، وأعظمهم نبينا ﷺ فيما قبل الوحي.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ. ٢/ ٨٢.

كل شيء وعزيز أي ممتنع أن يضام، وحكيم أي محكم أفعاله على النظام، وكذلك سائر الصفات.

- إن علمه وقدرته وجوده وحكمته بلا نهاية ولا يبلغ العقل أن يصفها ولو وصفها لكانت متناهية.
- أخص ما يوصف به الباري تعالى هو كونه حيا قيوما؛ لأن العلم والقدرة والجود والحكمة تندرج تحت كونه حيًّا، والحياة صفة جامعة للكل، والبقاء والسرمد والدوام وحفظ النظام في العالم تندرج تحت كونه قيوما، والقيومية صفة جامعة للكل.

ثم يتحدث الشهرستاني عن أفلاطون فيذكر أنه «معروف بالتوحيد والحكمة»، ويعرض لآرائه فيذكر من أقواله:

- إن للعالم محدثا مبدعا أزليا واجبا بذاته عالمًا بجميع معلوماته على نعت الأسباب الكلية، كان في الأزل ولم يكن في الوجود رسم ولا طلل.
- وعندما سُئل: ما الشيء الذي لا حدوث له؟ وما الشيء الحادث وليس بباق؟ وما الشيء الموجود بالفعل وهو أبداً بحال واحدة؟ أجاب: إنما يعني بالأول: وجود الباري تعالى، وبالثاني: وجود الكائنات الفاسدات التي لا تثبت على حالة واحدة، وبالثالث: وجود المبادئ والبسائط التي لا تتغير.
- إن الأشياء التي لا ينبغي للإنسان أن يجهلها منها: أن له صانعًا وأن صانعه يعلم أفعاله، وذكر أن الله تعالى إنما يعرف بالسلب أي لا شبيه له ولا مثال، وأنه أبدع العالم من لا نظام إلى نظام، وأن كل مركب فهو إلى الانحلال وأنه لم يسبق العالم زمان ولم يبدع عن شيء[1].

وكذلك أرسطو، ذلك الفيلسوف الكبير الملقب بالمعلم الأول، جرى ونسج على هذا المنوال على خلاف مشهور عند أهل هذا الشأن، وكذلك كثير من فلاسفة

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ٢/ ٨٢: ٩٣.

اليونان[١]، فهم بعد التأمل «كافرون بآلهة اليونان، وأما الإله الحق فهم يبحثون عنه، ومنهم من يعجز عقله عن تصوره، ومنهم من يقوده العجز إلى الضلال، وآراؤهم على ما فيها من ذكاء وإخلاص في البحث تنطوي على نظرات إلى الكون ساذجة حائرة، فيها ومضات من نور الحق، في ظلمة حالكة من الإبهام والغموض والشك»[٢].

ولن نعدم مثل هذا في حكماء وفلاسفة الأمم قبلهم، فمنذ الفراعنة، أقدم الحضارات الكبرى المعروفة في التاريخ، نقرأ في آثار إخناتون كلاما يجعلنا لا ندري هل هو كلام متأمل وصل إلى باب الهداية أم كلام نبي ممن لم يقصص الله علينا قصصهم، أو حنيفيا قام يحيي دعوة بعد خفوت، لأن التاريخ المعروف لهذه الفترة -كما قلنا- لا يسعفنا بمثل هذه التفاصيل؛ وحيث إننا لا نجرؤ على القول بأنه كان نبيا أو كان مؤمنا بنبي فلا أقل من أن نتوقع أنه كان عاقلا مخلصا فتح عيونه وشحذ حواسه وأخلص بقلبه، فساقته آيات الله في الكون إلى أن يعتقد بالتوحيد. اسمع في هذه المناجاة وأبصر ذلك التأمل العميق:

«أنت إله، يا أوحد، ولا شبيه لك، لقد خلقت الأرض حسبما تشاء، أنت وحدك، خلقتها ولا شريك لك، والذي يذرأ من البذرة أناسا، وجاعل الولد يعيش في بطن أمه، مهدئا إياه حتى لا يبكي، ومرضعا إياه حتى في الرحم، وأنت معطي النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته، حينما ينزل من الرحم في يوم ولادته، وأنت تفتح فمه تمامًا، وتمنحه ضروريات الحياة»[٣].

---

(١) من أمتع الكتب التي عرضت لتاريخ الفلاسفة كتاب ول ديورانت «قصة الفلسفة» ثم كتاب براتراند رسل «حكمة الغرب» ثم بتوسع أكثر وعبارة أكثر تعقيدا والتفافية كتاب رونالد سترومبرج «تاريخ الفكر الأوروبي الحديث». في هذه الكتب وأمثالها يمكنك أن تلتقط من تاريخ فلاسفة أوروبا في عصر ما قبل دخول المسيحية إليها كيف أن الفلاسفة الكبار كانوا على أبواب الهداية وكلامهم عن التوحيد وعن الإله وعن الأخلاق والفضيلة بلغ حدا دفع بعض المفكرين والمؤرخين لأن يعتقدوا أنهم ربما كانوا كالحنفاء العرب يحاولون بعث عقيدة دينية كانت قد اندثرت أو خفت نورها، والبعض بلغ به الإعجاب أن توقع أن بعضهم ربما كانوا أنبياء ممن لم يقصص الله علينا قصصهم في القرآن. وعلى الجانب الآخر رفض كثيرون هذا الرأي لا سيما إن كان في سياق الرد على المعجبين الذين بلغوا أحيانا مبلغا شططا في التوفيق بين الإسلام وهذه الفلسفات. انظر: د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص٣٦ وما بعدها، د. مصطفى حلمي: الإسلام والمذاهب الفلسفية ص١٢٩ وما بعدها، د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١/ ١٦٤ وما بعدها.

(٢) نديم الجسر: قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن، ص٢٨.

(٣) د. محمد عمارة: عندما دخلت مصر في دين الله، ص٨، ٩. وهو ينقل عن: د. عبد المنعم أبو بكر: إخناتون ص٩٧، ٩٨.

التأمل
لدى السلف الصالح

لئن كنا تحدثنا منذ قليل عن قوم تأملوا ولم يدركوا نور الوحي، فالآن جاء الحديث عمن أدركوا نور الوحي وعاشوا في رحابه، فلئن كان التأمل وضع الأولين على باب الهداية، فإن هؤلاء قد تكشف لهم بالتأمل أسرار مملكة الهداية.. نورها وكنوزها وقصورها، فكانوا كما قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

ويستلهم المسلمون من سير وأقوال السلف الصالح ذلك النموذج الإيماني الفريد والبليغ، فسلفنا الصالح يبدأ من صحابة رسول الله ﷺ ثم تابعيهم، وتابعي التابعين.. وهم القرون الثلاثة التي شهد لها رسول الله بأنها خير الأجيال، قال ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**...» الحديث[1]. ويأتي بعد هذه الأجيال، الأفذاذ من العلماء والزهاد والعباد ممن شهدت لهم الأمة باستقامتهم وورعهم وتقواهم.

لقد فهم سلفنا الصالح كيف أن التأمل والتفكر فيما يحيط بالإنسان يرسم له طريق اليقين في الله، ومنه يدخل في القلب تعظيم قدر الله، وحبه وخشيته، فبه يعرف القلب حقيقة الأشياء: حقيقة الله، وحقيقة نفسه.

ولهذا كان الحسن يعتبر التأمل مرآة يعرف منها كل إنسان حسناته وسيئاته، فينقل عنه الفضيل قوله: **الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك**[2].

وبالتأمل وصل أبو سليمان الداراني إلى درجة رفيعة، يصفها فيقول: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة ولي فيه عبرة[3].

---

(١) متفق عليه: البخاري (٢٥٠٩)، ومسلم (٢٥٣٣).
(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣١٤.
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٨٤.

إن نفس هذا المعنى عبر عنه الإمام سفيان بن عيينة حين قال: الفكرة نور تُدْخِله قلبك. ثم زاد هذا المعنى وضوحا حين قال: التفكر مفتاح الرحمة، ألا ترى أنه يتفكر فيتوب. وكان -رحمه الله- دائمًا يتمثل بقول الشاعر:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة[١]

ونجد نفس المعنى أيضًا في ألفاظ أخرى في قول ابن عون: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة[٢]. كذلك في قول حاتم الأصم: من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف[٣].

وهذه هي علامات اليقين.. انظر إلى حال الصحابي الجليل أبي الدرداء الذي لما سئلت زوجته أم الدرداء عنه قالت: كان أكثر شأنه التفكر[٤]. ويبدو أن إجابة أم الدرداء استفزت السائلين، فسألوا أبا الدرداء نفسه: أفترى التفكر عملا من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين[٥].، وكان ﷺ يقول: تفكر ساعة خير من قيام ليلة[٦].

ولم يكن هذا حاله وحده ﷺ، بل هو المعنى العام الذي غرسه النبي ﷺ في صحابته، فعن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: **«إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر»**[٧].

ولقد فقه بشر بن الحارث الحافي أثر التأمل فقال: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه[٨]. واعتبره لقمان الحكيم طرقًا لباب الجنة فقال: إن طول الوحدة أَلْهَم للفكرة

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٧/ ٣٠٦.
(٢) البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، ٢/ ١٥٢.
(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/ ٤٢٥.
(٤) أورده البيهقي في شعب الإيمان (١١٩)، وابن أبي شيبة (٣٥٧٢٩)، وأبو داود في الزهد (١٩٨)، وابن المبارك في الزهد (٢٨٦).
(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣١٤.
(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١١٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٧٢٨)، وأبو داود في الزهد (١٩٩)، وابن المبارك في الزهد (٩٤٩)، وغيرهم، ويُروى هذا من طرق أخرى عن ابن عباس وعن الحسن البصري.
(٧) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٨٥.
(٨) السابق ٢/ ١٨٥.

وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة[١]، ورآه عمر بن عبد العزيز أفضل العبادات فيقول: الكلام بذكر الله عز وجل حسن والفكرة في نعم الله أفضل العبادة[٢].

وعن ابن عمر ﷺ أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه – أي يرققه ويزيد الإيمان فيه- يأتي الخربة – أي المكان المقفر الخالي الخرب – فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، واعتبر الحسن البصري أن الإسراف في الطعام قاتل للتفكر، وبهذا فسر حديث الاقتصاد في الأكل، قال: يا ابن آدم كل في ثلث بطنك واشرب في ثلثه ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة[٣].

وورد عنه أيضًا ما يدل على أن حياته كلها كانت في تأمل وتفكر ونظر واعتبار، حتى أنه استنكر حال من لم يكن كذلك فقال: «من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكرًا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارًا فهو لَهْوٌ»[٤]، ورُوي هذا المعنى عن سيدنا عيسى ﷺ أنه قال: طوبى لمن كان قيله تَذَكُّرًا وصمته تَفَكُّرًا ونظره عبرًا[٥].

وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه بكى يوما بين أصحابه، فسئل عن ذلك فقال: فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواعظ لمن ادكر[٦].

ويشرح حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي كيف يوصل التأمل إلى التقوى، فيقول: «ثمرة الفكر هي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير»، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٨٤.
(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ٥/ ٣١٤.
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٨٥.
(٤) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/ ٤٢٤.
(٥) أورده ابن أبي الدنيا، نقلا عن: ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٦٧/ ٤٣.
(٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٨٥.

الجوارح؛ فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر. فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر؛ لأن الفكر ذكر وزيادة، وذكر القلب خير من عمل الجوارح»[١].

وقد سجل الإمام ابن الجوزي تجربة عملية له، قال: «عرض لي في طريق الحج خوف من العرب فسرنا على طريق خيبر، فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ما أذهلني وزادت عظمة الخالق عز وجل في صدري، فصار يعرض لي عند ذكر تلك الطرق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها.

فصحت بالنفس: ويحك اعبري إلى البحر وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر، تشاهدي أهوالًا هي أعظم من هذه، ثم اخرجي عن الكون والتفتي إليه فإنك ترينه بالإضافة إلى السموات والأفلاك كذرة في فلاة، ثم جولي في الأفلاك وطوفي حول العرش وتلمحي ما في الجنان والنيران، ثم اخرجي عن الكل والتفتي إليه، فإن تشاهدين العالم في قبضة القادر الذي لا تقف قدرته عند حد، ثم التفتي إليك فتلمحي بدايتك ونهايتك وتفكري فيما قبل البداية وليس إلا العدم، وفيما بعد البلى وليس إلا التراب.

فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى؟ وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟ بالله لو صَحَت النفوس عن سكر هواها لذابت من خوفه، أو لغابت في حبه، غير أن الحس غلب، فَعَظُمَت قدرة الخالق عند رؤية جبل، وإن الفطنة لو تلمحت المعاني لدلت القدرة عليه أوفى من دليل الجبل»[٢].

***

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/ ٤٢٧.
(٢) ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص١٥٨، ١٥٩.

تحذير مهم
لابد أن تتخلص منه فورا

لم يكن ممكنا أن ننهى هذا القسم من الكتاب دون هذا التحذير الخطير والسريع في ذات اللحظة، لأن الإبحار معه يستغرق دراسة أخرى.

كل شيء في هذه الأرض وما فوقها وما تحتها وما حولها وما في جوفها وما على سطحها.. كل ما في النفس من آيات وجوارح ودلائل على الخالق الواحد تبارك وتعالى، كل هذا ينتصب خطيبا ما أبلغه، يخاطب القلوب والعقول موجهها إياها نحو الصراط المستقيم.

لكن الله تبارك وتعالى أخبرنا في آية تلقي الرعب في القلوب بأن من لم يؤمن بهذه الآيات، لن يؤمن ولو حتى فتح الله له أبواب السماء كلها ودخل فيها ورأى عالم الغيب وعالم الملائكة.. إنه حينها سيقول ببساطة: لقد سُحرت ولست في وعيى، وكل ما أراه هو وهمٌ في وهم. ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤- ١٥].

ذلك هو المعاند.. وهذا هو العناد.

تلك الصفة التى تجتمع فيها أسوأ صفات البشر من العجب والكبر واتباع الهوى والانتصار للنفس، ولذا يمكن لصفة العناد أن تعميك عن كل شيء، وعن كل آية، وعن كل إبداع.. بل وتجعلك تكفر بالله تعالى رغم كل شيء.. خطورة العناد تكمن في أنه يلغى العقل، ويضخم النفس.

ولعله من الخير أن نضرب للتذكير فقط أربعة أمثلة ترينا كيف يمكن للعناد أن يلقى صاحبه في النار من أقرب طريق وفي أسرع وقت.

١- بعد زمن يمتلئ بنعم الله على بنى إسرائيل قال بنو إسرائيل لله جملة قصيرة تركزت فيها كل معانى الكفر والجحود.. قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، ومن

المدهش أن نعم الله عليهم كانت في أغلبها معجزات..

لم تمض لحظات على نجاة بنى إسرائيل من قبضة فرعون التى حاصرتهم بين البحر من الأمام وبين الجنود من الخلف، وفي لحظة أو أقل تحول الماء إلى طريق صلب يابس أنجاهم به الله تبارك وتعالى من فرعون.. هو نفس الطريق الصلب الذي تلاشى في لحظة ليغرق فرعون وجنوده أمام عيونهم.. لم تمض لحظات على تلك المعجزة الرهيبة الجليلة التى أوقفت قانون الكون بل وغيرته إلى العكس.. حتى كان بنو إسرائيل يرون قوما يعبدون صنما.. صنم.. مجرد صنم.. وإذ بهم يطلبون من سيدنا موسى أن يجعل لهم إلها كإله هؤلاء القوم!!! قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [البقرة: ٩٣].

ولنا أن نضع ملايين علامات التعجب على الذين يطلبون عبادة صنم بعد معجزة بهذه الضخامة وهذا الإعجاز، مما جعل سيدنا موسى يرد عليهم والدهشة تنطلق من رده كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۞ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤١]. ثم ما لبث أن اختفى عنهم سيدنا موسى أياما حتى صنعوا عجلا من الذهب وعبدوه فعلا.

وحينما أصابهم العطش في الصحراء جاءت معجزة أخرى، إذ ضرب موسى بعصاه الحجر فتدفق الماء من اثنى عشر عينا على نفس عدد فصائلهم، واهتدى كل قوم إلى العين بهداية الله تبارك وتعالى.

ثم أنعم الله عليهم بأن يأتيهم طعامهم إلى حيث هم في كل صباح، فينزل الله عليهم شراب (المنّ) الذي يجمع بين اللبن والعسل، يرسله الله لهم على جذوع الأشجار فيأخذون منه كل يوم ما يكفيهم، ثم تأتيهم طيور السمان (السلوى) ليأكلونها بلا تعب ولا نصب.. فتركوا كل هذا وطلبوا من موسى ﷺ أن يدعو الله ليخرج لهم البصل والفوم والبقول والعدس.. إلخ، وما ذلك إلا لأنهم لم يثقوا في الله تبارك وتعالى واستمرار هذه النعم.

فلما طلب الله منهم أن يقاتلوا في سبيله ووعدهم بالنصر، قالوا كلمتهم التى لا يمكن أن تخرج من إنسان مؤمن ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. وهكذا كانت حياتهم، معجزات لا تقبل جدلا ولا مناقشة، وتزرع الإيمان في أقسى قلب، لكنهم بعنادهم كانوا يقابلون كل معجزة بمعصية وكفر.

حتى قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.. هكذا بكل مباشرة وبكل وقاحة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

إن الذهول يضرب كل أرجاء النفس أمام هذه الآية، حتى لا تجد النظرات إلا البلاهة تعبر بها عن دهشة ساحقة.. ماذا كانت تلك القلوب التى تجرأت لا على التفكير بل على النطق بهذا؟؟.. أى شيطان هذا الذي امتلك هذه القلوب، فأعماها وأقساها وفرض عليها انغلاقا ليس له جزاء إلا غضب الله وعقابه وناره وعذابه الخالد؟؟؟

إلا أنهم وفروا علينا عناء تفسير مشاعر قلوبهم.. إذ قالوا بنفس البساطة والجحود (قلوبنا غُلف).. أى أن قلوبنا مغلفة ومحاطة بالأغشية. ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. هذا شيء مما يفعله العناد.

***

٢- أتى رسول الله محمد ﷺ بمعجزات باهرة كدليل من الله على صدقه، ودعا إلى الله في قريش، وكذبوا ولم يمل من الدعوة.. هددوه.. عذبوا صحابته.. آذوه.. وما زال يدعوهم.

أغروه بالملك والرئاسة والنساء وبالمال.. فرفض ومازال يدعوهم.

لم يثنه لا الترغيب ولا الترهيب.. وهو الصادق الأمين العفيف.. وهو الذي لم يكذب في شأن الدنيا ولا على أحد من أهل الدنيا.. ومازال يدعوهم.

جادلوه فأفحمهم، وكذبوه فصبر، وعذبوه فتحمل، وآذوه فكان كالجبل.

كان معه قرآن عجزوا عن الإتيان بمثله وهو الأمى الذي لم يكن يقرأ ولا يعرف بالبلاغة ولا ينظم الشعر.

شق أمامهم القمر.. ووصف لهم بيت المقدس ولم يذهب إليه من قبل.

بعد كل هذا.. ترى كيف يكون الرد، وما هو الموقف؟؟؟

انظر كيف يقلب العناد كل منطق ليتكلم المعاند بالجنون ذاته.. ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]. إنهم يستعجلون العذاب قبل أن يأتي يوم الحساب.. أي خطل وجنون هذا؟؟؟!!!!!!

فقال الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الصافات: ١٧٦] ذلك العذاب الرهيب الكاسح الذي إذا ﴿نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧].

بل تَعْجَب أكثر حين تقرأ هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. «وهو دعاء غريب؛ يصور حالة من العناد الجامح الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق، حتى ولو كان حقًا!. إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق، وأن يهديها إليه، دون أن تجد في هذا غضاضة. ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة تأخذها العزة بالإثم، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحًا لا ريب فيه.. ويمثل هذا العناد كان المشركون في مكة يواجهون دعوة رسول الله»[1].

لا شيء غير الذهول يمكن أن يصيب الإنسان إزاء هذا الدعاء الذي لا يمكن أن يكون صدر عن إنسان عاقل أصلا.. لكنه العناد، إذا أصاب القلب ظل فيه يتكاثر ويتكاثر حتى لا يترك للهداية مكانا مهما يكن ضئيلا.

٣- اجتمع نفر من زعماء قريش وهم (عتبة وشيبة ابني ربيعة- وأبو سفيان بن حرب - ورجلان من بني عبد الدار- وأبو البختري - والأسود بن المطلب بن أسد - وزمعة بن الأسود- والوليد بن المغيرة - وأبو جهل بن هشام - وعبد الله بن أبي أمية بن خلف - والعاص بن وائل - ونبيه ومنبه ابني الحجاج السهميين)

فعرضوا على النبي ﷺ المال والملك والزعامة والنساء والنفوذ، فلم يفلحوا.. فطالبوه

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣/ ١٥٠٥.

بأن يوسع لهم الجبال عن مكة ويفجر لهم فيها الأنهار.. ثم يبعث لهم من مات من شيوخهم وعلى رأسهم الحكيم قصى بن كلاب ليسألوه عن رأيه في هذا الذي يقوله محمد أصدق هو أم كذب.. أو يتحول محمد إلى رجل بالغ الثراء يملك الكنوز والقصور والذهب والفضة والجنات.. أو يسقط السماء عليهم أحجارا.. ثم اتهموه بالعمالة لجهة خارجية فقالوا: قد بلغنا أن من يُعلِّمك هذا رجلٌ في أرض اليمامة يسمى (الرحمن).. وإنا لن نؤمن بالرحمن أبدًا.

ولاحظ كيف أنهم حين سألوه أن يبعث موتى شيوخهم، لم يروا في هذا دليلا كافيا على نبوته، بل إنهم سيسألون هؤلاء المبعوثين ما رأيهم في محمد!!!!!

اللهم إنا نعوذ بك من هذا العناد، ومن قسوة القلب.

لكن القصة لم تنته بعد، لقد بقى أظرف جزء فيها، أو قل الجزء الصارخ الذهول الهائل الغرابة.. إذ انبرى ابن عمة النبى ﷺ واسمه عبد الله بن أبى أمية ليقول: طلب منك قومك كذا وكذا وكذا ليثبت لهم أنك صادق، فلم تفعل.

- فوالله لا أؤمن بك حتى ترتفع أمامى إلى السماء..

وتأتى من السماء بصحيفة منشورة..

ويأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون معك على صدقك..

ووالله لو فعلت كل هذا فلا أظن أنى سأؤمن لك.

يا الله!!! يا الله!!!... يا الله!!!

ماذا أصاب هذه القلوب؟؟.. لا بل هذه العقول؟

إن مجرد الارتفاع في السماء لا يكفي..

ثم النزول منها بوثيقة تصدق محمدا لا يكفي أيضًا..

لا بد أن يرتفع في السماء، ثم ينزل منها، ومعه الوثيقة، ومعه ملائكة أربعة كشهود..

ثم كان الرجل صريحا مع نفسه، حين قال، وإن حدث هذا فلا أظن أنى سأومن بك[١].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٣٧٢.

قال تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

يقول الإمام ابن كثير: «وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادا لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنها يطلبون ذلك كفرا وعنادا. فقيل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذابا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة. فقال: بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] »[1].

٤- موقف حيي بن أخطب. روت صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: كنت أَحَبَّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حيى بن أخطب، وعمى أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسِين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كَالَّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَى. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمى أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[2].

إننا هنا في مشهد مختلف تمامًا، حيث نحن بإزاء رجل يهودى قد رأى النبى ﷺ، وهو موصوف عندهم في الكتب السابقة، وعرفه بمجرد أن رآه، وكان متأكدا منه بدون أدنى شك، حتى إن أخاه أبا ياسر حين أعاد عليه السؤال للتأكد ولمزيد من التأكد: أهو هو؟

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥/ ١١٩، ١٢٠.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية. ٣/ ١٤٦، ١٤٧. (وفي سند الخبر انقطاع).

قال حيي في ثقة: نعم والله.

قال أبو ياسر: أتعرفه وتثبته؟

قال حيي: نعم.

لكن حيى بن أخطب بعد أن عرف أن هذا الذي رآه هو نبى من عند الله، وبالتالى فهو يعرف يقينا أن الحق مع هذا النبى، وأن النجاة في الدنيا وفي الآخرة من العذاب، وأن دخول الجنة، ونيل كرامة السبق إلى الإسلام في العالمين في الدنيا وعند رب العالمين في الآخرة.. يعرف أن كل هذا في اتباع هذا النبى والإسلام معه.

لكنه في عناد غير مبرر ولا معقول، ينوى أن يعاديه.. ليس فقط يعاديه.. بل ينوى أن يستمر في هذا العداء طول حياته.

ولا حول ولا قوة إلا بالله..

وحدث ذلك بالفعل، واستمر حيى بن أخطب من موقعه في (خيبر) المدينة اليهودية بالحجاز يخطط ويدبر ويحيك المؤامرات للنبى ﷺ، ويستقبل اليهود فيخطط معهم ويؤلب قبائل العرب على الدولة الإسلامية.. حتى كان عام ٧ من الهجرة حين قرر النبى ﷺ فتح خيبر، وإنهاء مصدر هذه الفتن، وفي هذه الغزوة قُتل حيى بن أخطب كافرا.

***

من تلك الأمثلة السابقة وغيرها يتأكد لنا أنه حين يدخل العناد إلى القلب، فإن هذا يعنى بتلقائية خروج الإيمان، بل وإغلاق القلب أمام هذا الإيمان فلا يستقبل منه شيئًا.. مهما كانت الدلائل والآيات من حوله تؤكد وتدعم هذا الإيمان، بل ومهما حدث له نفسه من معجزات مبهرة.. إنه العناد الذي يمكن أن يدخلك النار من أقصر طريق وفي أسرع وقت، فأنه يمنع حتى العقل من التفكير السليم.

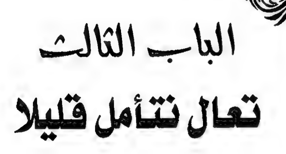
فإذا ختم الله على القلب، فقد تحول إلى قلب لا يخرج منه الكفر، ولا يدخل إليه الإيمان.. وحين يُختم على القلب يختم كذلك على الأذن، وكذلك على العين.. فلم يعد الإنسان مستعدا لقبول هداية، فسواء جاءهم الإنذار أو لم يبلغهم.. لم يكونوا ليؤمنوا.. كما

أخبرنا الله عن الكافرين فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦- ٧]. إن الهوى يعمى ويصم ويغشى الإنسان حتى لا يترك له طريقا، وهذا النوع من الناس سماهم الله في القرآن عباد الهوى الذين اتخذوا الهوى إلها.. فأعماهم ذلك عن كل آية أبدعها الله.. ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۞ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ۞ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۞ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۞ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٤٣- ٤٩]. وقد ينعم الله على إنسان بهذه الهداية، لكن العناد واتباع الهوى، ينسف كل هداية.. ولقد قص الله علينا قصة عبد كان عالمًا عارفا آتاه الله من آياته وعلمه من علمه، ولكنه أُغري بالمال والدنيا فكفر بسيدنا موسى، وقاتله وانضم لأعدائه.. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥- ١٧٦].

***

ولهذا كان شرطا أساسيا في أن يستقبل قلبك الإيمان المناسب إليك من التأمل في النفس وفي الكون وفي التاريخ وفي أسماء الله – تبارك وتعالى – وصفاته.. أن يخلو من هذا العناد والإصرار.

لابد أن تعود نفسك على التجرد والانحياز للحق ولو كان ليس في صفك، وأن ترجع عن الخطأ وأن تسير خلف الحق أينما كان.. فهذا – بإذن الله – هو شرط دخول الإيمان إلى قلبك.



الباب الثالث

تعال نتأمل قليلا

١ - للتأمل مجالات عديدة.

٢ - تعال نتأمل قليلا.



للتأمل مجالات عديدة

فيا عجبا كيف يعصى الإله	أو كيف يجحده الجاحد؟
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه الواحد

إن لله تبارك وتعالى آية في كل شيء خلقه من حولنا، في السماء والأرض.. في النفس والروح والعقل والجسد.. في البحار والأشجار والأمطار والجبال..

بل في الشجرة الواحدة تكمن أنهار الآيات والدلائل من جذوعها وثمارها وأغصانها وأوراقها..

بل في ذات الورقة التى لم نعرف إلا منذ أعوام أنها مصنع كبير لامتصاص الهواء الملوث من الجو، وإعادة إنتاج هواء نقى، فالورقة صارت مصنعا كبيرا يقوم بمثل هذه المهمة الحيوية في حياة الكائنات التى تتنفس الهواء.

وهذا يستدعى تعمقا آخر في ذلك المصنع الكبير لنرى كل جزء منه كيف يقوم بالعمل، فتوجد وحدات التغذية، ووحدات استقبال الشمس، ثم وحدات التجميع، ثم إعادة الإنتاج للهواء النقى في عملية تمثل خط إنتاج بالغ الدقة.. وبالغ الصغر في ذات الوقت.

ومن يدرى ما الذي ستكشفه الأيام فيما بعد في شأن هذه الورقة الصغيرة من أوراق الشجر.

إلا أن التأمل لا يقف عند الحد الخارجى.. إنما يمتد ليغوص في إبداعات هذه المملكة التى تسمى بالإنسان.

والإنسان كما هو معروف (روح وعقل وجسد ونفس)... أو (روح ونفس وجسد).. أو (روح وجسد).. كل هذه تقسيمات واحدة في المعنى، لكننا سنلاحظ أن الجسد قد انقسم إلى أقسام كثيرة، لا أعرف عددها على وجه التحديد، وصار علم الطب علما بالغ الدقة في كل جانب.

فهذا الجسد الصغير، هو شكل مُرَكّز لمدينة صناعية كاملة، يبحث العلم في جوانبها..

فهذا علم لا يبحث إلا في العيون.. العيون فقط، وذلك للأذن.. ثم الأعصاب.. والصدر.. والباطنة.. والعظام.. والجلد.... إلخ.

وفي عصرنا الحديث تم تفتيت هذه التخصصات لأنها في حد ذاتها تنفجر كل يوم بالجديد المبهر الذي يتعدى قدرة البشر على متابعة الكل في وقت واحد.. فيلجأون للتقسيم مرة أخرى؛ فالعين وحدها قد انقسمت إلى أقسام للقرنية والشبكية والأعصاب.. وهكذا باقى التخصصات التى تكبر وتتسع في كل يوم.. ثم لا تلبث إلا أن تكبر وتتمدد وتتسع.

كل هذا ونحن ما زلنا في القسم الجسدى من الإنسان..

اما الجانب النفسى أو العقلى أو الروحى، فهو الذي يمثله اليوم علم النفس الذي يعد من العلوم العميقة والواسعة والتى تكتشف في كل حادثة وفي كل جريمة وفي كل حالة جانبا آخر من جوانب تلك النفس الإنسانية.

لا يقف التأمل عند هذا الحد أيضًا.. إنه ينطلق عبر الزمان ليصبح تأملا في مسيرة التاريخ، وأحوال الأمم السابقة.. كيف كانت تعيش؟ كيف كانت تدير حياتها؟ كيف انتهت وانتهى أثرها من التاريخ؟

إنه تأمل في محاولة اكتشاف تلك القوانين العليا التى تحكم هذا الكون، وتحكم حركة الحياة والأحياء فيه.. محاولة استبصار نتائج التجربة الماضية حتى نستفيد منها؛ فندخل التجربة واثقين أو لا ندخلها إن ثبت فشلها، أو نُعَدِّل فيما نراه نقصا فيها.

لا يقف التأمل عند هذا الحد كذلك.. إنه ينطلق خارج حدود الزمان وحدود المكان، ليتأمل في صفات الإله الذي أنشأ هذا الكون، وأودع فيه كل هذه الطاقات والإمكانيات، فجعل كل شيء فيه ينطق بالقدرة والدقة وفي نفس اللحظة ينطق بالإبداع وبالرحمة.

كما أن من المثير للدهشة واللافت للنظر أن الأشياء في هذا الكون لا تقوم بعملها ولا تؤدى مهمتها في ثبات روتينى، بل هى تغلف كل هذا بلمسة جمالية تبهر النفس لا تقل أهمية عن المهمة الكونية التى تبهر العقل.

«إن الجبال لا تكتفي بأن تكون جبالًا، ولكنها تكون جميلة ورائعة مكسوة بالثلوج،

أو مكسوة بالغابات! إن السحاب لا يكتفي بأن يكون سحابًا يحمل الماء، ولكنه كذلك يكون جميلًا بأشكاله وألوانه، ثم ينتشر عليه في بعض الأحيان، طيف الشمس (قوس قزح) في منظر رائع جميل! إن النبات لا يكتفي بأن يكون نباتًا، ولكنه يُورق ويزهر، ويستمتع منه الإنسان بزهره الأريج وشكله البهيج! إن الطير لا يكتفي بأن يكون طيرًا، ولكنه يسقسق يغرد ويلعب ويقفز، وتزهو منه الألوان! إن الحيوان لا يكتفي بأن يكون حيوانًا، ولكنه يقفز ويمرح، و«يتخابث» في لطف ويُستألف للإنسان»[1].

وهكذا مخلوقات الله تقوم بعملها في لمسة مبدعة.. زقزقة العصافير.. ألوان الفراشات.. جمال وتنوع الأشجار.. المنظهر الرائع للفاكهة والذي يمتع العيون قبل أن يشبع الجسد.... إلخ.

أي يد تلك التى صاغت كل هذه الحكمة، المغلفة بكل هذا الجمال؟

أي قدرة تلك التى أمسكت السماء والأرض والنجوم والكواكب لتدور في نظام ثابت راسخ لملايين السنين؟

إنه تأمل في صفات الله تبارك وتعالى، تأمل يرى في كل شيء، وفي كل واقعة طرفا من عظمته، ومن رحمته، ومن قدرته.. هكذا في لحظة واحدة، تلقى إليك الحادثة الواحدة بسيل من معانى صفات الله في نفس اللحظة. وسبحان الله العلى العظيم.

وإذا أردنا تصنيف المجالات التى دعانا الله للتأمل فيها، حسبما هى موجودة في القرآن المكى، وجدناها:

١) التفكر في الكون   ٢) التفكر في النفس
٣) التفكر في القرآن.   ٤) التفكر في التاريخ
٥) التفكر في أسماء الله وصفاته   ٦) التفكر في نعم الله.

فهذه الأشياء الستة التى عالجها القرآن الكريم في العهد المكى، حتى يزرع الإيمان في نفوس الناس، فخرج من هؤلاء أنقى جيل عرفته الأرض، صفاء وطهرا وفداء وشجاعة نادرة.

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ص١٥٠.

تعال نتأمـــــل

لا شك في أن موضوع هذا الفصل من الكتاب هو أوسع من قدرة البشر جميعا على استيعابه، ومازال العلم يكتشف، والأبحاث تصدر، والكتب والدراسات تنشر.. وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فليس هناك انتهاء لآيات الله أبدا ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولو تحولت كل هذه البحور والأنهار والمحيطات إلى حبر ليكتب آيات الله وإبداعاته لنفدت هذه الأحبار، قبل أن تستوعب كل آيات الله، ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. لذا سنكتفي بمثال واحد في كل مجال من مجالات التأمل، لكن يجب أن يكون معروفا أن التأمل لا يؤتى أثره من خلال القراءة.. إنما من خلال المشاهدة والرؤية، والتفاعل الطبيعي مع الآيات.. قد تفتح الكتابة فكرة أو تلفت النظر إلى جانب، أو تلقي الضوء على جزئية.. لكن الرؤية المعاينة تظل الوسيلة الطبيعية للتأمل.

ولهذا المعنى تحديدا كان العلماء هم أحق الناس وأولاهم بالخشية من الله تعالى، لأن عملهم هو التأمل، فهم في تأمل وتفكر ورصد دائم للحقائق التي هي في الحقيقة رسائل ربانية، كانت منثورة ومتخفية في ثنايا هذا الكون الفسيح، ثم ظهرت لهم مع البحث والتأمل والتفكير، فكانوا أول من يطالعونها ويقرأونها، ولهذا ذكر الله تعالى بعد آياته في الكون هذه الحقيقة، لأنه «كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى -كلما كانت المعرفة به أتمّ والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»[1].

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٥٤٤.

قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

[غافر: ٢٧-٢٨].

«هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته، وهذه الصفحات التي قلبها في هذا الكتاب هي بعض صفحاته، والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب. ومن ثم يعرفون اللهّ معرفة حقيقية. يعرفونه بآثار صنعته. ويدركونه بآثار قدرته. ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه. ومن ثم يخشونه حقا ويتقونه حقا، ويعبدونه حقا، لا بالشعور الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون، ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر.. وهذه الصفحات نموذج من الكتاب.. والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الأخرى، وبدائع التنسيق التي لا يدركها إلا العلماء بهذا الكتاب. العلماء به علما واصلا. علما يستشعره القلب، ويتحرك به، ويرى به يد اللهّ المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون الجميل»[١].

ولأجل هذا اليقين الذي يسكن قلب العالم المتلقي لآيات الله وإعجازه كان الفارق الهائل في الفضل بينه وبين العابد، لأن الأمر ليس بعمل الجوارح، وإنما السير سير القلوب.

قال ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**»[٢].

وذُكِر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم. فقال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»[٣].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٣.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في تعليقه على أصحاب السنن.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٥) وصححه الألباني في تعليقه على سنن الترمذي.

١) التفكر في الكون:

شاء الله لى أثناء إعدادى لهذا الكتاب أن أزور – على غير ترتيب مسبق – متحف (الصيد) في متحف قصر النيل بالمنيل في القاهرة، وفي هذا المتحف عدد من الطيور والحيوانات التى يمكن صيدها، وأدوات الصيد في العصور المختلفة ومناطق انتشار الحيوانات والطيور في مصر.

وفي هذا المتحف رأيت – لأول مرة – أنواعا من الطيور والحيوانات لم أرها من قبل رغم غرامى بعالم الحيوان، والموجود في المتحف ليس كمية كبيرة، لكن كل واحدة منها يعبر عن عالم من الأنواع والفصائل.. ما بين طيور ذات مناقير طويلة جدًّا، إلى متوسطة الطول، إلى القصيرة، إلى التى لا تكاد تُرى مناقيرها، وما بين الجوارح والمستأنس والمنفصل عن عالم البشر.

إن محاولة وصف هذه الحيوانات والطيور هى محاولة حمقاء، لأن البشر بطبيعتهم لا يستطيعون وصف الجمال ولا الغرابة.. لأنه إحساس وشعور، والكلمات مهما كانت بلاغتها لا يمكن أن تنقل المشاعر والأحاسيس.

من يستطيع وصف طعم التفاحة؟.. إنها لذة وإحساس وتذوق لا يمكن وصفه بحال.. إنما من ذاق عرف.. وهكذا كل إحساس، تستطيع – إن أوتيت البلاغة – أن تُفْهِم السامع أو القارئ لمحة منه، غير أنه لا يستطيع أن يستقبل نفس ما تحاول أن تنقله إليه من إحساس.

رهبة يرتجف لها القلب، كلما أدرك أن العالم أكبر مما كان يتصور، وأنه يحوى من أنواع الحيوانات والطيور ما لم يكن يتخيل.. وأن كل هذه الكائنات ومعها الحشرات والهوام، ثم البكتيريا والفطريات والجراثيم والكائنات المجهرية التى لم نرها إلا بعد اختراع المجهر المكبر.. كل هذه الكائنات تقع في نطاق علم الله المحيط الدقيق، وقد تكفل لها الله بالرزق وبالحياة، وألهم غرائزها طرق معيشتها وأساليب اصطيادها لفرائسها، وأساليب هروبها من مفترسيها، وحيل تضليلها لأعدائها.

وما بين كائن يسد الأفق ويُلقى صوته – مجرد الصوت – الرعب في القلوب، إلى

كائن آخر لا يُرى بالعين.. عوالم وممالك تمتلئ بها هذه الأرض التى لا نرى نحن منها إلا عالم المال والشهوة.

عوالم كممالك النحل وقرى النمل، وأسراب لا تنتهى من طيور مختلفة الألوان والأشكال والأحجام والأرزاق وسبل المعيشة ووظيفتها في الحياة، وحيوانات تكبر وتصغر، وتَفْتَرِس وتُسْتَأنس، وأخرى مسخرة للإنسان، وأخرى تهدده، وأخرى يهددها، وزواحف تصغر وتكبر وتتفاوت في الضرر والخطورة.. بانوراما هائلة يعرضها الكون في صفحة الحياة الدنيا، أينما توجهت بعينيك رأيت مشهدا لا يقل إبهارا عن سابقه وعن لاحقه..

كل هذه الكائنات يشملها علم الله الذي قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]. انظر في صفحة السماء السوداء التى تتلألأ فيها النجوم، التى تخبو حين يطلع القمر قليلا.. هذا المشهد هو من المشاهد التى لا يعرفها أهل المدن التى تزخر بالإضاءات الصناعية.. إنها روعة لم يذقها إلا أهل الصحراء وبعض أهل القرى البعيدة.

تلك الشمس التى لم تغب يوما واحدا عن ميعادها، ورغم ما في هذا المشهد من استمرارية إلا أن هذه الاستمرارية هى سر من أسراره وإعجاز من إعجازاته.. هل هناك آلة من آلات البشر استمرت طول عمرها تعمل بلا كلل ولا ملل ولا مشاكل؟؟

إذا وقفت أمام البحر أو النهر.. تأمل ما هى تلك القوة التى تُجْرِي هذه المياه بمثل هذه السلاسة والرقة.. والانتظام الراسخ أيضًا؟؟ ومنذ متى وهذا البحر يجرى، أو هذا النهر يسرى؟؟

ذلك مشهد آخر لا ينفع معه الوصف، ولا بد من التجربة..

انتظر.. نحن مازلنا على السطح، نحن عند الغلاف الخارجى الذي هو سطح البحر والنهر، لكنه غلاف يغطى تحته مملكة أخرى تسمى (عالم البحر).. وهُو كعالم البر تمامًا.. لكنه خلق آخر، ومعيشة أخرى، وأسلوب حياة مختلف تمامًا.. حتى طرائق الأكل والتنفس والتكاثر، كلها دفقات إبداع جديدة متجددة لا تنتهى.

خلق آخر، يعيش في بيئة أخرى، تحت سطح الماء، خلق الله له من الجوارح ما يمكنه من التنفس من تحت الماء ومن السباحة فيها ببساطة، كما أى مخلوق فوق الأرض يشق الهواء حين يسير دون أن يشعر بأدنى معاناة.

ثم عوالم أخرى تحيا خارج هذا الكوكب.. نجوم ومجرات وشهب ونيازك ومذنبات وغلالات من الغبار الكونى.. صور لا نهاية لها من عالم المادة وتفاعلاتها مما لا تحتمله الأرض.. انفجارات مستمرة على سطح يفور بالاشتعال.. إنها الشمس التى هى نجم متوسط من بين النجوم، وفي الكون نجوم عملاقة في منتهى الضخامة.. والشمس في حد ذاتها فقط تستوعب مليون كرة أرضية كتلك التى نعيش عليها.

أذكر أنى طالعت موسوعة علمية تتحدث عن النجوم ونسبها فيما بينها، وقد كانت الشمس بالنسبة لنجوم عملاقة أكبر من نسبة الأرض إلى الشمس.. أى أن هناك بعض النجوم تستوعب مليونا من شمسنا المعروفة.

شمسنا ومجموعتها الكوكبية وهى الكواكب التى انجذبت للقوة الجاذبة لشمسنا هى جزء في غاية الضآلة من المجرة التى تضم ملايين المجموعات الشمسية لتدرو حول مركز المجرة في صورة مكبرة للمجموعة الشمسية، والمجرة بدورها تدور في أفلاك متناهية الضخامة والشسوع.

يمكن أن نستشعر شيئًا من ضخامة هذا الكون، حين نعرف أن الزمن يقاس فيه بالسنة الضوئية.. الضوء ينتقل مسافة ٣٠٠٠٠٠ (ثلاثمائة ألف) كيلو متر في الثانية الواحدة.. أى أن انطلاق الضوء من مصدر معين إلى نقطة تبعد عن هذا المصدر بثلاثمائة ألف كيلو متر يحدث في ثانية واحدة.

وبإجراء الحسابات المعتادة نجد أن الضوء يقطع في السنة مسافة ٨٧٠٩١٢٠٠٠٠٠٠٠ (٨ تريليون وسبعمائة وتسعة آلاف ومائة وعشرين مليونا) من الكيلومترات.

هذه هى المسافة التى يقطعها الضوء في سنة كاملة تقريبًا، وبعض النجوم يصل إلينا ضوؤها بعد ملايين السنين الضوئية، ولربما كان النجم قد انفجر وانتهى منذ ملايين

السنين ومازال ضوؤه لم يصل إلينا بعد.. أضف إلى هذا أن الكون دائم الاتساع كما ثبت ذلك علميا.

مشهد المجموعة الشمسية والنجمية هو بذاته يحدث في أدق صور المادة، حيث الذرة التى تتكون من نواة متناهية الضآلة تدرو حولها إليكترونات في مدارات ثابتة، وتختلف كل مادة عن الأخرى في عدد الإليكترونات التى تماثل عناصر في النواة تسمى (البروتونات).. فالمادة تختلف خصائصها تمامًا بزيادة إليكترون واحد أو بنقص إليكترون واحد لتعطى مادة أخرى مغايرة.

أضف إلى كل هذا ما اكتشفه العلم الحديث من طاقات يزخر بها الكون كالطاقة الكهربية والمغناطيسية والحرارية، ونظام الضغط الجوى، والتوازن البيئى، وغير كل هذا مما كان يزخر به الكون ولم يكن معروفا، وحين اكْتُشف غيّر وجه الحياة تمامًا.

إننا بإزاء كون ينطق بالدقة من أعلى وأضخم مشاهده إلى تلك التى تتناهى في الصغر ولا ترى بالعين البشرية.. والتأمل في مثل هذا يلقى إلى القلب موجات من الرهبة الهادرة المجلجلة الصدى، وموجات من الخشوع الساكن المندهش المبهور، هذه المشاعر هي أصدق تقييم لوصف هذه الضآلة والتقزم الحقيقى لهذا الكائن الذي يسمى الإنسان، فهو بالنسبة للكون لا يزيد أبدا عن حبة رمل واحدة بالنسبة لهذه الأرض كلها، بل لعله أقل من هذا بكثير.

وربما كان هذا الشعور بحقيقة ضعف الإنسان وصغره وضآلته، هو المدخل الطبيعى لكى يستشعر به عظمة الله تبارك وتعالى وسعة علمه وإحاطته بالذرة والمجرة وما أصغر من ذلك وما أكبر مما نعرف وما لا نعرف.. وهو كذلك المدخل الطبيعى لكى يشعر بحاجته الماسة إلى الله، وانكساره وذله بين يدى الله تبارك وتعالى.

وكل هذه اليقينيات هى من مبادئ الإيمان.

٢) التفكر في النفس:

والنفس ليست فقط الجانب الجسدى الذي يبحثه الطب ويتضخم فيه كل يوم، بل

هو كذلك الجانب الروحى أو النفسى الذي يتضخم فيه أيضًا علم النفس.

أليس مثيرا للدهشة أن هذا الجسم الصغير ما يزال يعطى للعلم اكتشافات جديدة في كل ساعة؟!!

ثم – وهذا هو الأعجب – أنه يعطى مع كل اكتشاف جديد إثباتا جديدا يقول: بأنه ما يزال يمتلئ بإبداعات لم تُكشف بعد.. فمع كل معلومة جديدة يكتشف العلماء أن الجسم البشرى أوسع وأكثر تعقيدا مما كانوا يظنون.. مما يجعلنا ندور في دائرة تتسع في كل لحظة.. ويحمل كل اكتشاف جديد ما يفيد بأن هناك مزيد.

وهذا ما يؤدى إلى أن العصر الحديث لم يعد كسابقه يقتصر على أطباء العيون أو الجهاز الهضمى أو الأمراض الجلدية أو... أو... أو... إلخ، بل إن هذه التصنيفات نفسها قد تم تقسيمها داخليا ليظهر لنا الطبيب المتخصص في عنصر واحد من العناصر التى تكون العين، أو عضو واحد من أعضاء الجهاز الهضمى، أو جزء معين من أجهزة الجهاز العصبى.

ثم إن هذا التفرع داخل التخصصات قد أظهر احتياجا إلى فكرة الفريق لا الطبيب الواحد، لأن هذا الجزء الضئيل يحتوى على علوم كيميائة وحيوية وعلوم ذات طبيعة خاصة.. لا يُجدى معها الطبيب ذو التخصص الواحد.

إننا أمام مملكة كاملة، وليس هذا مبالغة، بل هو بالفعل ظلم لوصف نهر الإبهار المنهمر مع الاكتشافات العلمية الحديثة.

مملكة بها أقسام محددة وواضحة:

- الجهاز الهضمى: هو الذي يستقبل الطعام من الخارج ليدخله في سلسلة من العمليات اتى تبدأ بالقطع والتجهيز من خلال إفرازات خاصة في الفم، ثم ينزلق نحو المعدة عبر طريق معد وممهد ولا يدخله شيء آخر، ولا هو مجهز لشيء آخر، وأعنى المريء.. الذي ينقله إلى المعدة لتبدأ مراحل الهضم في جدية ودأب وصمت، ثم تستقبله الأمعاء عبر منحنى (الاثنى عشر) لتبدأ في تحويله إلى الدم، وهو النهر المنتشر في كل الجسم

ينقل إليه الطاقة والحرارة التى أمده به الطعام، ثم تبدأ الأمعاء في حركة تلقائية بعزل العناصر الضارة في صوامع أخرى يطلق عليها (الأمعاء الغليظة) التى تذهب بها خارج الجسم.

ليس هذا إلا الوصف العام والبدائى جدًّا لعملية الهضم، ففي كل مرحلة أسرار أخرى وعناصر إبهار أخرى..

لكن العملية كلها تجرى في صمت تام وهدوء تام، وبدأب شديد، بل وبدون أي إحساس من قبل الإنسان نفسه الذي يكون مشغولا -وكل هذه الأجواء تتفاعل داخله- في النوم أو في القراءة أو في العمل أو في الاستمتاع بأى شيء.

أتذكر الآن ملحوظة لصديق فاضل، وهى رغم روعتها في حد ذاتها، إلا أن حيويتها في أنها تلقى الضوء على منطقة لم يطرقها أحد، قال: من الأشياء العجيبة أن هذا الجسم ينبهك إلى احتياجاته، إذا احتاج إلى الطعام أخبرك من خلال الألم أنه يحتاج إلى الطعام.. فإذا أكلت نبهك أيضًا إلى أنه قد انتهت حاجته، ولم يعد في حاجة إلى طعام آخر.. هذا الإحساس في حد ذاته مذهل، ولا يمكنك أن تعرف هذا الذهول إلا إذا تخيلت[1] أنك فقدت هذا الشعور، ولم يعد جسدك ينبهك إلى احتياجه للطعام، أو وصوله إلى مرحلة الشبع، حينها لن ينتبه الإنسان إلى حاجته إلى الطعام إلا إذا نفدت طاقته، فإذا به يسقط أو يصيبه الضعف الشديد.. وقتها فقط سينتبه إلى حاجته إلى الطعام.

أو إذا فقد الشعور بالشبع، فظل يأكل ويأكل ويأكل دون تأثر حتى يستهلك بالطبع كمية ضخمة من الطعام، لعله سينتبه إذا وجد نفسه لا يستطيع التنفس؛ إذ تكون المعدة قد امتلأت عن آخرها فضغطت على الحجاب الحاجز الذي ضيق على الرئتين.. وهكذا.

إن الله – جلت قدرته – خلق فينا من الغرائز ما تحولت معه إلى أشياء طبيعية وعادية، وقد لا ننتبه إليها من كثرة التعود عليها حتى لم يصبح الخيال يتخيل فقدها، فلا نعرف قيمتها وأهميتها.. ولا نرى فيها يد الله المطلقة الإبداع والقدرة.. فسبحان الله!

---

(١) لعل هذه تكون فكرة مبتكرة تصلح لعمل أدبى روائى يلتقطها شاب موهوب.

- الجهاز التنفسى: وهو الوحدة المتخصصة في عملية من أهم العمليات المؤثرة على حياة الإنسان، حيث تنقسم إلى عناصر تستقبل الهواء الداخل عبر الأنف المزود بغشاءات داخلية مبطنة وشعيرات دقيقة تعمل على تنقية الهواء من الملوثات، ثم على ملاءمته لحرارة الجسم بالداخل، ثم يدخل الهواء نحو القصبة الهوائية عبر البلعوم أيضًا، والمزود بقطعة لحم صغيرة تعمل في آلية مبدعة مستمرة لغلق منفذ الجهاز الهضمى حين يدخل الهواء، كذلك غلق مدخل الجهاز التنفسي لحظة ابتلاع الطعام.

ثم يدخل الهواء فيما بعد إلى منطقة الرئتين اللتين تعملان على تنقية الهواء واستخلاص الأكسجين، ثم إعادة لفظ الهواء غير الصالح للجسم ليعود نحو الخارج عبر نفس الطريق.. وهذه العملية التى تتم في كل لحظة، والإنسان لايدرى بها.. بل إننى حين كتابة هذه السطور لم أكن أنتبه لها فعليا بشكل كامل.. وهى العملية الحيوية التى تتوقف عليها الحياة.

وهذا أيضًا هو الوصف العام البدائى – الظالم لعظمة الموصوف والمثير لسخرية المتخصصين– لهذه العملية التى تحتوى كل مراحلها على دفقات إبداع أخرى.

وعلى هذا النسق كل أجهزة الجسم كالجهاز العصبى الذي ينتشر كشبكة مواصلات ضخمة تصل إلى كل طرف مهما كان بعيدا ودقيقا، على رأسها المخ الذي يشبه غرفة العمليات على مدار الساعة والذي لا يتوقف لحظة عن تلقى الإشارات وبعث الأوامر إلى مناطق الجسم المختلفة..

والجهاز الدورى.. والجهاز التناسلى، وملايين العمليات التى تحدث داخل الجسم.. وحواس مثل السمع والبصر والصوت.. مملكة ضخمة تكسوها طبقة من الجلد، وهى في حد ذاتها آية أخرى.. وكل هذا في هذه المساحة الضئيلة التى يشغلها جسم الإنسان.

انتبه.. كنا فقط في القسم الجسدى.

أما القسم النفسى، وهو الذي ما يزال مجهولا بالنسبة للعلم إذا قارناه بالقسم الجسدى، مشاعر الحب والكره والخوف والرجاء والقناعة والطمع.. اختزان الصور

والأحاسيس والمشاعر.. تذكر المواقف والتواريخ والأحداث.. الارتياح لشخص أو لشيء من أول نظرة.. وبغض آخر دون سبب.. التقلب بين الحب والكره دون سبب.. مشاعر الاستمتاع.. مشاعر الرعب والفزع، لماذا يتصف البعض بالجرأة والآخر بالخوف وثالث بالشجاعة ورابع بالجبن؟؟

ومن أين تنبت هذه المشاعر؟ وكيف تنفجر في لحظة.. وقد تزول في لحظة أيضًا؟؟

كيف يكون الحدث الصغير البسيط ذو تأثيرات بعيدة على نفسية الإنسان وحياته حتى يبلغ أواخر عمره، ولا تفلح سنين من الخبرة والعمل والتجربة في أن تمحو هذه الحادثة بالذات أو هذا الشعور بالذات؟؟ من أين ينشأ الغضب الذي يرفع من معدل ضربات القلب، ومن تدفق الدم في الشرايين ويسبب ارتفاع درجة الحرارة في الجسم؟؟ ومن أين تنشأ السعادة والراحة والفرح.. لا أحد يدرى.

لا أحد يدرى.. رغم أنها أشياء من صميم النفس، ومن مكوناتها الأساسية.. وسبحان من جعل آياته في أعماق النفس.

هناك من تسكن الرحمة قلوبهم فيتحولون إلى بشر رقيق شفاف كأنه لمسة الهواء الناعم اللذيذ.. وهناك قساة غلاظ الأكباد كأنهم أحجار أو كأنهم الأفاعي والثعابين.. أو كأنهم وحوش وذئاب.

هناك الخدوم المعطاء الذي يفيض على الناس حبا وعطفا.. وهناك الشحيح البخيل الذي لا يتردد في أن يتخلص من كل من يعوق رغباته أو يعطلها مهما كان سابق العهد والمودة.

هناك الحكيم الوقور، يقابله الأحمق المندفع، هناك الحليم يقابله الأهوج.. وكل هؤلاء ولد وعاش في ذات البيئة وذات الأجواء.

يكاد هذا يشبه كونا آخر تحت جلود البشر، متعدد الأنواع والتصنيفات والتفريعات والمستويات.. كون في أعماق البشر لا يطلع عليه ويراه إلا الذي خلقه سبحانه وتعالى جلت حكمته وتقدست أسماؤه.

ثمة تحدٍّ آخر في مجال النفس هذا.. وهو الروح..

هذا الشيء المجهول الذي تحدى الله الناس بمعرفته، ورغم أنه سر الحياة كلها، ورغم أنه الفارق الوحيد بين الحياة والموت.. بين الكائن الحى والجماد.. إلا أن الإنسان عاجز عن معرفته.

الشيء الذي لا يُرى ولا يُسمع ولا يُلمس ولا يشعر به أحد.. يكون الإنسان حيا متحركا، وأمام كل الناس تخرج منه الروح فيتحول إلى جسد ميت.. فلا يستطيع منهم أحد أن يعرف ما هذا الذي جرى؟

الروح.. طعم الحياة، وسر الأحياء.

إن تحدي الله للبشر بمعرفة هذا السر، ليكفي -وحده- لينقل القلب فيدخله إلى الإيمان، ولا أقول يدخل الإيمان إلى القلب؛ لأنه التحدي العميق في إعجازه، كيف لا يعرف الإنسان إلى الآن سر هذه الحياة التي يحيا بها، وكيف لم يستطع على طوال تاريخه وقد مات الملايين ثم الملايين، كيف لم يستطع لمرة واحدة أن يكتشف هذا السر؟ ثم كيف لم يستطع بعد أن تراكمت لديه المشاهدات والملاحظات والنتائج أن يستخلص معادلة تحل هذا الإشكال وتفسر هذا السر العظيم.

غير أن التحدي ليس فيما سبق، بل في حكم الله بأنه الإنسان لن يعرف هذا السر أبدا، لن يعرفه مهما حاول، ومهما بلغ من العلم. هنا تتبدى عظمة التحدي، وهنا تتبدى عظمة الله.

ومع كل ميت يموت، ثم يقف الإنسان لا يستطيع تفسير «الروح» يعظم التحدي أكثر وأكثر، ويزيد المؤمن إيمانا، لأن الله قد قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

حين نرى تمثالا متقنا، أو رسما دقيقا.. يغمرنا الإعجاب بتلك اليد التى صاغت هذا الجمال، واقتربت به إلى الحقيقة.. وهو شعور طبيعى فطرى خلقه الله في الإنسان.

لكننا في العادة ننسى شيئين في منتهى الأهمية:

١ – أن كل هذه الصنعة هى بالأساس تقليد للجمال الطبيعى الذي أبدعه الله تعالى على غير مثال سابق.. وبين الإبداع والتقليد فارق ضخم لا يعرف حجمه إلا أهل الفن والتصميم.

٢ – أن كل هذا الجمال والإتقان هو الغلاف الخارجى فقط.. هو الصورة السطحية.. الصورة الميتة التى تخلو من الروح، وهى بخلوها من الروح تخلو من كل الحياة.. من المشاعر والأحاسيس والانفعالات.. تخلو من التفاعل مع الكون، لا تميل مع النسيم ولا تهرب من الهلاك.. حجم صلد صامت.. أو سطح أملس، جميل نعم.. لكن هذا هو كل جماله، ولا يعطى غدا أى جديد أو إضافة.

وسبحان من تظل آياته تنطق كل يوم، بما يزيدها جمالا وجلالا وإبهارا.. وغموضا في ذات اللحظة.

٣) التفكر في القرآن الكريم:

أجدنى عاجزا عن الكلام في هذا الموضوع.. فالقرآن لغز.. شيء يشبه ذلك النعيم الذي لا يمكنك تحديد متعته على وجه التحديد، هو أمواج من إعجازات متعددة ومتنوعة..

متعة كتلك التى تجدها – مثلا وعلى سبيل التقريب – في جلوسك في جنة أرضية يحوطك فيها صفاء السماء، وهدير الماء المنهمر من شلال قريب، تحوم حولك العصافير والبلابل تسمع أنغامها وأصواتها الخلابة.. معك من الناس أكثر من تحبه وتستمتع به وتركن إليه، وذهنك قد تخلص تمامًا من أى همٍّ يشغله، ثم يتحرك إلى جانبك حيوان لطيف، أو قد يداعبك حيونك الأليف.

هى متعة أحاول تقريبها، لكن يبدو أنى أعجز عن ذلك..

المقصد، هو أنها متعة لا تعرف من أين تأتى، هل هو المشهد الجميل أم الصوت الجميل أم ارتياحك الداخلى، أم من وجودك مع من تحب، أم.. أم.. أم...؟؟

هكذا القرآن، ولا أروع من القرآن.. أمواج متعة لا تنتهى، البلاغة القرآنية في التشبيه والتصوير ووصف المشاهد.. الإعجاز العلمى.. خطابه مع النفس البشرية.. عرضه لقصص السابقين واللاحقين..

إنها أشياء لا تعرف وأنت مغمور فيها من أين تأتيك المتعة..

ولا أدَّعى أنى عشت القرآن كما يجب، بل ولا كما أستطيع.. اللهم اغفر لنا تقصيرنا، لكن إذا طالعت أقوال من عاشوا مع القرآن تشعر بأنه قد تكونت بينهم وبين القرآن رابطة قوية ترفض الانتهاء أو الكسر، رابطة عنوانها «اللذة».. حتى إذا تأملنا بعضًا من المشاعر التى وصفها من عاشوا مع القرآن أدركنا أنهم قوم وصلوا إلى اليقين، بشدة ما تأثروا بالقرآن واستقبلوا منه خلال أسلوبه المتفرد آياته التى تغرس الإيمان.

يقول أحمد بن أبي الحواري: «إني لأقرأ القرآن فأنظر في آية آية فيحار عقلي، فأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم و يسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا و هم يتلون كلام الرحمن!! أما لو فهموا ما يتلون و عرفوا حقه و تلذذوا به واستحلوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحا بما رزقوا»[1].

وكان مالك بن دينار يقرأ قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ثم يقول: «أقسم لكم، لايؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه»[2].

ويحكى الإمام ابن تيمية عن فترة سجنه التى لم يكن يستطيع فيها قراءة الكتب، فتفرغ للقرآن، يقول: «قد فتح الله عليَّ في هذا الحصن في هذه المرة من معانى القرآن، ومن أصول العلم بأشياء كان الكثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أوقاتى من غير معانى القرآن»[3].

---

(١) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ٤/ ٢٣٧، ٢٣٨.
(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ٢/ ٣٧٨.
(٣) ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة، ٤/ ٥١٩.

وفي عصرنا الحديث، ظهر لنا تفسير عجيب.. ينطق بأروع الإثبات بأن صاحبه قد عاش مع القرآن رحلة ملائكية.. ذلك هو تفسير (في ظلال القرآن) للشهيد سيد قطب، الذي كان حتى اختياره لاسم التفسير جديدا على الوجدان الإسلامي.. وقد كتب أغلب التفسير أثناء سجنه في أيام الاضطهاد الذي مارسه عبد الناصر على الإخوان المسلمين. ولقد أوتى الشهيد موهبة بلاغية جعلته يجيد في وصف المشاعر التى انتابته لدى قراءته للقرآن، وكتب في هذا الكثير والكثير مما لو تم تجميعه لصار كتابا كبيرا منفردا.. المهم أن الرجل ذكر باختصار قصته في ظلال القرآن في مقدمة التفسير، فقال:

«الحياة في ظلال القرآن نعمة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.. والحمد لله.. لقد منَّ علي بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي. ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه»[١].. ومقدمة الظلال من أروع ما كُتِب في التأثر بالقرآن.

يقول ابن القيم عن القرآن: «أَسْمَعَ والله لو صادف آذانا واعية، وبَصَّر لو صادف قلوبا من الفساد خالية، لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبوابها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها، فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذا، وتحكمت فيها أسقام الجهل فلم تنتفع معها بصالح العمل»[٢].

ولكي لايطول منا الكلام.. والقرآن لا تفنى عجائبه، نقتصر على مثالين فقط، وليكونا في الإعجاز العلمي؛ لأنه الإعجاز الذي يتحدى به القرآن أهل هذا العصر.

١ – كتب الدكتور منصور حسب النبى – رحمه الله – الأستاذ بجامعة المنصورة بحثا أثبت فيه –من خلال القرآن– صحة نظرية أينشتاين التى تقول بأن سرعة الضوء هى ثابت كونى، من خلال وصوله إلى أن سرعة عروج الأمر الكونى المستنتجة من القرآن تساوى سرعة الضوء تمامًا.

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ١١.
(٢) ابن القيم: مدارج السالكين ١/ ٣.

يقول[١]:

- الحساب القرآني للسنين يقدر بالسنة القمرية وليست الشمسية؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]. ولذا فالزمن الذي يستعمله القرآن هى السنة القمرية.
- وانطلاقا من قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] نستنتج أن الملائكة يصعدون بالأمر من الأرض إلى السماء في يوم واحد يساوى بالزمن الأرضى ألف سنة قمرية، أى ١٢ ألف شهر قمرى. (أى أن هذه هى سرعة الملائكة في العروج بالأمر).
- فإذا حسبنا المسافة التى يقطعها القمر في ١٢ ألف شهر قمرى، ثم حولنا حساباتنا إلى النظام الشمسى؛ لكى يتوافق مع المقياس العلمى المتعارف عليه.
- ومن خلال المسافة المقطوعة ومن خلال معرفة الزمن (اليوم الأرضى) يمكننا حساب سرعة الملائكة في العروج بالأمر الكونى.
- انتهى البحث بالحساب إلى أن هذه السرعة تساوى تمامًا (مع فرق طفيف وضئيل جدًّا جدًّا ناتج عن خطأ طبيعى في العمليات الحسابية والتقريبات النسبية) سرعة الضوء[٢].

٢- المثال الثانى ذكره العالم العالمى الجليل د. زغلول النجار حين تحدث عن الإعجاز العلمى في القرآن الكريم بإحدى جامعات استراليا عن أن القرآن ذكر منذ ألف سنة أن المعادن نزلت إلى الأرض من خارجها وليست شيئًا أصيلا فيها، والدليل على هذا أن الحديد الموجود في باطن الأرض يحتاج في تكوينه إلى طاقة حرارية عالية تساوى أربع مرات الطاقة الحرارية الموجودة في مجموعتنا الشمسية.

---

(١) نقلها بتصرف واختصار وتوضيح لا يخل بالمعنى.
(٢) سنضع العمليات الحسابية بالتفصيل في ملحق بنهاية هذا الكتاب. (ملحوظة): هذا الاستنتاج يكتب خطأ في بعض مواقع ومنتديات الإنترنت تحت عنوان (اكتشاف سرعة الضوء من القرآن الكريم).

ولفتت إحدى الحاضرات نظره إلى رقم السورة ورقم الآية التى وردت فيها كلمة (الحديد).. فذهل الدكتور زغلول حين وجد أن رقم السورة يطابق العدد الكتلى لعنصر الحديد، ورقم الآية يطابق العدد الذرى. (٥٦، ٢٦) [1]، ولا أظن عاقلا – غير معاند – يمكن أن يرى هذا الإعجاز العلمى بالقرآن الكريم ولا يؤمن به ولا بخالقه.

وسبحان الله العليّ العظيم.

٤) التفكر في التاريخ:

التاريخ هو التجربة السابقة التى تكشف لنا الآن القوانين التى تحكم هذا الكون، وتتحكم فيه.. فإذا عرفنا مثلا أن كل الحضارات والقوميات التى لم تكن تقيم العدل كلها بلا استثناء تزول تدريجيا بمجرد تخليها عن العدل.. كان من العبث أن نفكر في حياة مستقرة مستقيمة دون هذه القيمة (العدل).

وإذا قص علينا التاريخ قصة الحق الأعزل الضعيف الذي دائمًا ما ينتصر ضد قوة باطلة كبيرة ومهيمنة.. كان من العبث أن يختار الواحد فينا معركته ورسالته في الحياة إلى جوار الباطل المتكبر.

هكذا سائر العبر التى يمكننا استخلاصها من التاريخ، لأن التاريخ تجارب الناس..

ولعل أهم عبرة يمدنا بها التاريخ هو قانون الموت والفناء، مهما بلغ الإنسان والحضارات من عظمة وهيمنة.

حينما أذهب إلى المعابد أو المتاحف أو القلاع مثلا.. أو حتى تلك المباني المتناثرة والتى لم يمض على بنائها أكثر من مائة أو مائتى عام، أكاد أتحسس الأحجار التى قد مات بانيها وساكنها والآمر ببنائها.. وقد ماتوا هم وأبناؤهم وأحفادهم، والله أعلم أين أبناء

---

(١) هنا وقفة: ترقيم السور هو من الأشياء التى فيها خلاف بين العلماء، ومصدر الخلاف هل يبدأ العد من أول الفاتحة أم من أول البقرة.. فإذا بدأ العد من أول الفاتحة كان رقم سورة الحديد٥٧، وإذا بدأ من البقرة كان رقم السورة ٥٦، كذلك هناك اختلاف بين العلماء حول هل البسملة آية من آيات كل سورة أم أنها آية من الفاتحة فقط؟، فإذا اعتبرناها آية من كل سورة يكون رقم آية سورة الحديد ٢٦، وإذا لم تُحسب البسملة يصبح رقم الآية ٢٥.

أحفادهم وأحفاد أحفادهم الآن.

كلهم قد مات، وبقيت آثارهم التي بنوها.. بقيت تدل عليهم، وتذكر الناس بهم.. تقول في صمت: إن أناسا عاشوا هنا وبنوا، ثم ماتوا وراحوا.

إنه صمت بليغ، يذكرك بأنك بعد مائة عام على الأكثر ستكون قد مت ورحلت عن هذه الأرض تمامًا، فانظر ماذا قدمت لهذا المصير.

ولعل أكثر ما يركز عليه القرآن الكريم هو مصير المكذبين لآيات الله والكافرين به، وكيف أهلكهم الله تعالى، إما بعقاب عام أو بعقاب خاص، ولقد كثر في الأمم السابقة الهلاك العام الذي عاقبهم به الله كالريح والصواعق والإغراق، والخسف وغير ذلك ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. ولربما كثير منا اليوم يستبعد هذا العقاب الجماعي، رغم أنه لا يخلو من حياتنا بين كل فترة، وسبحان الله منذ أيام وبعد بدايتي في هذا الكتاب حدث -في فبراير ٢٠٠٦م- انزلاق طيني من أثر بركان قديم فطمس قرية فلبينية بكاملها، بكل ما فيها من مباني ورجال وأطفال ونساء.. لحظات وكانت القرية قد اختفت تحت الطين.

وفي ديسمبر ٢٠٠٤ كانت الزلزال الذي حدث في المحيط قبالة إندونيسيا والذي نشأت عنه أمواج هائلة تعرف علميا بـ(تسونامي)، هذه الأمواج أخفت بلدانا كاملة، وأغرقت في حصيلة غير نهائية أكثر من ٢٠٠ مليون إنسان بين غريق ومفقود.

أضف إلى هذا الزلازل التي بدأت تزحف نحو مناطق لم تكن تصاب بها من قبل مثل مصر وتركيا وإيران..

كل هذا يعني أن العقاب الإلهي قائم، ومن الممكن أن يعم الناس في لحظة ليس أكثر.

في حلقة تليفزيونية أذاعتها في ٢٠٠٣ قناةُ (طريق النجاح smart way) بعنوان (حقيقة الحياة الدنيا) كانت تهدف إلى أن تقول: «الموت يأتي في أي لحظة».. سواء بالشيخوخة أو الحوادث أو المرض المفاجئ أو الحوادث العامة.. في أحد المشاهد بدا منظر

الماء وكأنه يفترس أحد المباني ليغرقه.. وقفز إلى ذهني سؤال: ترى كيف لو أن واحدا داخل هذا المبنى على معصية الآن، فيموت على المعصية؟

وكان احتمالا مفزعا ومرعبا؛ لأن أي معصية يمكن أن تكون هي لحظة الموت لأي سبب، وما أبشعها من نهاية، وما أسوأها من خاتمة.

وإذا كان التاريخ يمدنا بهذه التجارب التي تؤكد أن الابتعاد عن الله وترك آياته أو محاربتها ومعاداتها إنما مصيره عذاب في الدنيا قبل ذلك العذاب الخالد في الآخرة.. أليس من العبث أن يستمر هذا الابتعاد عن منهج الله؟

بل لعل هذا من الجنون والحماقة.. ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

ومهما بلغ القوم من العلم والقوة والمال لم يشذ عنهم قانون الله الراسخ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]. ما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون..

وقد كان القرآن ينزل يقص على النبي ﷺ قصص الأقوام السابقين تثبيتا له وتسريا عنه لما يلقاه من تكذيب قومه، وتبقى هذه الآيات خالدة لكل الناس.. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وحتى مطالعة التاريخ، دون رؤية آثار السابقين بالعيون أمر ذو أثر بليغ؛ فالقراءة عن الحياة التي تمت منذ قرون، وكيف عاش فيها البشر يأكلون ويشربون ويتزوجون، ثم هم أيضًا يتنافسون ويتحاسدون ويتحاربون، إنما صورة البشر الذين كانوا ثم ماتوا وانتهوا ولا يعرف أحد أين أحفادهم الآن، ولا أين ذهبت أموالهم وكنوزهم وخيولهم ودوابهم.

صورة من الحياة حفظتها لنا الكتب، لكن كأنها صورة المرآة، إذ نرى فيها أنفسنا

وحياتنا، معيشتنا ومماتنا، صورة الصراع والتنافس والتباغض والتحاسد، إنها صورتنا نحن قبل أن نولد، ونحن أيضًا صورة لأحفادنا قبل أن يولدوا.

وكما حفظت الكتب حياة من قبلنا لنا، فستحفظ أيضًا حياتنا لمن بعدنا. ترى إذا أمسك حفيد لنا بكتاب التاريخ وقرأ فيه حياتنا اليوم، أين سنكون في هذا الوقت؟.. أين؟

إنه سؤال مفزع، وقد يكون صادما، برغم أنه سؤال بسيط ومنطقي للغاية.

كاتب هذه السطور سيكون في القبر، وأنت كذلك أيها القارئ، سنكون قد تركنا هذه الدنيا ورحلنا عنها، ولا شك أننا سنُنسى، أو قد تدل علينا أعمالنا وآثارنا، لكن أين سنكون؟ في روضة الجنة أم في حفرة النار؟ إنه ليس ثمة مصير آخر. حين يقرأ حفيدنا الكتاب لن يعرف أين نحن في هذا الوقت، لكننا نحن سنعرف، بل سنعيش الحياة الحقيقية الكاملة مثلما أننا لا نعرف مصير من سبق، ونقرأ عن حياتهم في الكتب، ولكنهم يعيشون حياتهم ويعرفونها، هذا هو درس التاريخ البليغ، ورغم بلاغته فإن الذين يتنبهون له قليل. حتى ليكاد يصدق قول القائل: «إن التاريخ نفسه يعلمنا أن العظة والعبرة الوحيدة في التاريخ، هي أن أحدًا لا يتعظ من قراءة التاريخ»(١).

قارئ التاريخ لا تمر عليه أسطر إلا ويقرأ تاريخ وفاة لأحد الناس، وفاة أو قتل، في حرب أو على الفراش، في الجهاد أو في عقوبة، تعددت الأسباب والموت واحد، لكن الحقيقة الأكبر من التفاصيل أن الكل قد مات، لقد مات أبو حنيفة، ومات مالك، ومات الشافعي، ومات أحمد. مات الخلفاء العظام ومات الخلفاء الضعفاء، مات الجبابرة ومات الأتقياء. مات مروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، مات أبو جعفر المنصور ومات الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم، مات عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر، مات عماد الدين زنكي، وابنه الملك العادل نور الدين، ومات صلاح الدين، مات قطز وبيبرس وقلاوون، مات عثمان وأورخان ومراد ومحمد الفاتح، مات الغزالي وابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم، ماتوا وما بقي منهم أحد.

---

(١) د. قاسم عبده قاسم: إعادة قراءة التاريخ، ص١٩.

مات قبلهم الجيل الفريد، وخير الناس، مات الجيل الكريم، جيل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.. وبلال وسلمان وخالد بن الوليد.. مات جيل الزهاد والعباد والفاتحين الكبار، وذهب عصر العمالقة الأفذاذ، نجوم الدنيا، وفخر البشرية..

مات الحبيب..

سيد الخلق وأكرم الناس، وخير من مشى على ظهر الأرض، وخير من نزل إليه خبر السماء، مات الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، مات رسول الله محمد ﷺ وصدق قول الله فيه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

مات الأنبياء والمرسلون، والصالحون والطالحون، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

لكن عبرة التاريخ ليست في الموت فقط، بل هي عبرة في الحياة أيضًا..

إن الناس لا يزالون يتذكرون أئمة العلم والفقه والدين، لا يزال فقه أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد تقرؤه الدنيا، ما تزال عبقريات ابن حزم والغزالي وابن تيمية تسحر العقول، ما يزال طب ابن سينا والزهراوي وابن النفيس وابن زهر يعيدهم إلى الحياة، يعرف الناس الجزري والحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والقزويني وابن فضلان وابن جبير وابن بطوطة والإدريسي، وطابور طويل يتزاحم في الرأس ولا تستوعبه سرعة القلم.

العلم يرفع بيتا لا عماد له　　　والجهل يهدم بيت العز والنسب

لقد خلدوا بعلمهم واجتهادهم، وتذاكرتهم القرون والأجيال، وطبعت مؤلفاتهم حتى بعد وفاتهم بألف سنة، ولا أحد يمل من علومهم، ثم لا أحد يمل من الإعجاب بهم.

لكن من العسير، إن لم نقل المستحيل، أن نتذكر في عصورهم كبار «رجال الأعمال» أو كبار التجار، بل حتى الولاة «المحافظون» وأصحاب الشرطة «وزراء الداخلية»

والسفراء «وزراء الخارجية»، بل من العسير عند غير المتخصصين في التاريخ أن يتذكروا أسماء الخلفاء الذين كانوا في عصورهم.

ولم يخلد رجل أعمال، أو صاحب منصب في التاريخ إلا لو كان له أثر في عمل الخير، فذهب الرجل وذهبت أعماله، ولم يبق له ما يذكر باسمه إلا المسجد الذي بناه أو السبيل الذي حفره أو المدرسة التي أنشأها لتعليم الصبيان.

وفي هذا عبرة.. عبرة تشرح لك طريق الخلود.

٥) التفكر في أسماء الله وصفاته جل وعلا:

يقول الإمام ابن القيم: «من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه بنعيم الإقبال عليه والإنابة إليه. وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغب»[(١)].

يكاد يكون السبب في ضعف الإيمان وقلة اليقين والجرأة على المعاصي، هو عدم معرفة (الله).. أو – بمعنى أدق – هو عدم معرفة (قَدْر الله)، فلا يمكن أن تجتمع معرفة قدر الله تبارك وتعالى ثم يكون العبد مقيما أو مُصِرًّا على المعاصي، وفي هذا يقول الحسن البصري: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت».

ولن نجد تقريبًا بديعًا لهذه الصورة مثل حديث رسول الله ﷺ، قال: «**أوصيك أن تستحيي من الله كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك**»[(٢)].

فترك المعصية في هذه الحالة تعظيم لقدر الله تبارك وتعالى واستحياء منه.

---

(١) ابن القيم: الفوائد، ص٤٧.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٥٥٤٨) والبيهقي (٧٧٣٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٣٠٦).

وكان سيدنا نوح حين يستنكر المعصية على قومه يذكرهم بمقام الله فيقول: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

ولقد عرفنا الله به من خلال أسمائه الحسنى وهى تسع وتسعون كما في الحديث، منها الرحمن والعليم والقدير والعظيم والغفور والصبور والشكور والحى والقيوم والجبار والعزيز والمهيمن والخالق والرازق والمحيى والمميت.. فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعا وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر»[1]، تسع وتسعون اسما، كل منها يلقى إلى القلب معنى جليلا.. يُدْرَك من كل اسم جانب من جوانب الكمال والعظمة التى يتصف بها الإله الواحد العظيم.

يقول الإمام القرطبي: «سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى لأنها حسنة في الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله»[2]. ومن خلال الأسماء الحسنى، تستقر في النفوس معانيها التى تخبر بالله تبارك وتعالى، إن كل اسم من أسماء الله تعالى ترسل إلى النفس ذلك المعنى القوى العميق المدهش، فإذا استقبلته النفس عرفت قدر الله تبارك وتعالى.

فإذا حاولنا مثلا تأمل سعة علم الله وإحاطته بكل دقائق البشر ما صغر منها وما كبر، سنجد أن النفس تنزعج وتنتبه في رهبة وفزع إلى أن كل دقائقها وخفاياها وأسرارها هى أمر مكشوف عند الله، بل حتى تلك الأسرار التى لم تخرج إلى العلن..

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٧]. بل ويعلم ما هو أخفى من السر ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤]، وما أروع وصف الشاعر الذي تأمل في علم الله فأنشد يقول:

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٣٢٦.

يا من يرى مدّ البعوض جناحها | في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها | والمخ[١] من تلك العظام النُّحَّل[٢]
ويرى خرير الدم في أوداجها[٣] | مُتَنَقِّلا من مفصل في مفصل
ويرى وصول غذا الجنين لبطنها | في ظلمة الأحشاء عبر تنقل
ويرى مكان الوطء من أقدامها | في سَيْرِها وحثيثها[٤] المستعجل

وليس من شك إذا استشعرت النفس هذا العلم الشامل أنه تبدأ في مرحلة أخرى من مراحل إحساسها بالله العليم القدير.. ولا شك أنه إحساس يعيد إليها حاسة تقييم الحقيقة، لتعرف أن أفعالها كلها عند الله تبارك وتعالى.

ومثل هذا في قدرة الله، فهذه القدرة الباهرة المطلقة التي يخضع لها كل شيء، ويزول أمامها كل قانون، ولا تحتاج إلى أكثر من كلمة (كن) لتكون كما أراد الله تبارك وتعالى.

لا يشذ عن هذا نجم ضخم عملاق، ولا ذرة ضئيلة، ولا خلية تبدأ في التكون.. الكل لا شيء أمام قانون الله وإرادة الله وقوة الله تبارك وتعالى.

استشعار هذه القوة المطلقة التي تسيطر على كل هذا الكون اللامحدود.. تدخل النفس في مرحلة أخرى من مراحل إحساسها بالله القادر القاهر الجبار المهيمن.

مثل هذا رحمة الله وحبه لعبده، وفرحه بتوبته عودته إليه أكثر من فرح الوحيد الذي يئس من الحياة وأشرف على الهلاك، ثم أتته الحياة مرة أخرى.

قال ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده مِنْ أحدكم سقط عَلَى بعيره وقد أضله في أرض فلاة»[٥]. وفي رواية لمسلم «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه مِنْ أحدكم كان عَلَى راحلته بأرض فلاة فانفلتت مِنْه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع

(١) المخ: أصل العظام.
(٢) النُّحَّل: جمع النحيلة.
(٣) أوداج: العروق، ويقال تحديدًا للعِرْقَين الذين في العنق.
(٤) حثيث: سريع.
(٥) متفق عليه: البخاري (٥٩٥٠)، مسلم (٢٧٤٧).

في ظلها قد أيس مِنْ راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال مِنْ شدة الفرح: اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ مِنْ شدة الفرح».

فسبحان الله الذي اتصف بصفات الجمال والكمال والجلال، وتقرب إلى عباده بتعريفهم أسمائه وصفاته، فإذا تقرب العبد إليه شبرا تقرب الله إليه ذراعا، وإن تقرب العبد ذراعا تقرب الله إليه باعا، وإن أتاه يمشى أتاه الله هرولة كما في الحديث القدسى الصحيح[1].. مع استغناء الله تعالى عن كل عباده، وافتقار كل العباد إلى الله.. إلا أن الله تبارك وتعالى ليس كأى سيد.. ففي كل عبودية ينتفع السيد من عبده، إلا في عبودية الله التى ينتفع فيها العبد بخير سيده الأعلى تبارك وتعالى كما يقول الشيخ الشعراوى رحمه الله.

فإذا عرف العبد هذه الصفات في إلهه ومعبوده كان ذلك العجب الذي يصفه الإمام ابن القيم في كلامه السالف الذكر: «من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه بنعيم الإقبال عليه والإنابة إليه. وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغب».

٦) التفكر في نعم الله

يستطيع مرض واحد أن يقلب الحياة كلها إلى جحيم دائم..

ذلك المرض يسببه فيروس متناهى الصغر لا يشعر به المريض إلا بعد أن يستوطن جسمه ويحدث فيه الكوارث.. في تلك اللحظة فقط، يدرك الإنسان معنى نعمة الصحة.

قد يُنسي الاعتياد على النعمة مدى أهميتها وتأثيرها.. ولا يعرف نعمة البصر إلا من يحرم من البصر، فلا يفقد فقط سهولة الرؤية، بل يفقد معنى ضخما اسمه «الأمان»، وكأنه

(١) متفق عليه: البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥).

يتحرك في أمواج من الظلمات لايدرى من أين تأتيه السهام.

سبحان الله العلى العظيم..

كم من الشباب الذين يعبرون الشارع في رشاقة وسهولة، ودون أن يفكر لهذا العبور أو يحسب له حسابا.. كم منهم يقدر تلك النعمة التى قد يكون حرمها سائر بجواره لا يستطيع العبور إلا بمشقة بالغة.

بل لنترك النعم الكبيرة مثل السمع والبصر، لنجد أن الظفر إذا انتُزع أو جُرح أو وقع عليه حجر مثلا.. كيف يتحول ألم الظفر كأن اليد كلها قد شُلَّت، بل إن الجُرح -مهما كان بسيطا وسطحيا ولا يتعدى الجلد- يؤثر في حياة الإنسان ويكاد يستحوذ على كل تفكيره وكأنه كل الجسم، أو كأن الجسم قد تركز في هذه المنطقة.

هذا ونحن مازلنا عند سطح الجسم الإنسانى، فإذا دخلنا في أعماقه التى تمتلئ بالتعقيدات والتركيبات، وجدنا الخلل البسيط في إفراز غدة واحدة قد يعطل عملية كاملة.

ومهما قلنا وشرحنا ووصفنا.. لن نعرف قيمة الشيء إلا إذا فقدناه.

لن نعرف قيمة الصحة إلا إذا أصابنا المرض.

لن نعرف قيمة المال إلا إذا فقدنا المال.

لن نعرف قيمة الأم والأب والصديق والزوج والزوجة إلا بعد الفقد.

بل لن نعرف قيمة الفراغ إلا إذا تكاثرت المسؤوليات.

ولن نعرف قيمة راحة البال إلا إذا تتابعت الهموم.

لن نعرف قيمة النعمة في الطعام إلا إذا حَرَمَنا الطبيب من أكله.

لن نعرف قيمة الثياب إلا إذا عجزنا عن شرائها.

وكل هذه أمور اعتدنا عليها، وقليل من يشكر الله على أن أنعم عليه بها، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وهناك من النعم ما ليس بظاهر وواضح هكذا، بل يحتاج إلى بعض التأمل لاستخراجه.. فمثلا: ذلك الطفل الصغير[1] الذي لا يقدر على فعل شيء، ولا يعرف أي شيء، ولا يستطيع دفع الضرر عن نفسه.. انظر كيف يمكن لأي إنسان أن يقتله بأبسط وسيلة ودون صوت.

لكن الله ألقى في قلوب الناس الرحمة بالأطفال والحب لهم.. فكان هذا هو السلاح الذي يتسلح به الطفل الصغير، فتجده يبكي ويصرخ ويلعب ويلهو وقد يتسبب بلهوه وعبثه في أضرار لنفسه ولأهله.. كل هذا ولا يجرؤ إنسان أن يعاقبه.. هذا إذا لم يكن هذا اللهو والعبث من مصادر السعادة بالنسبة لمن حوله.

انظر كيف ألقى الله الرحمة له في قلوب الناس، فأحاطته هذه الرحمة حتى كبر وشب وقوى واستطاع الاعتماد على نفسه.. ولولا هذه الرحمة لهلك من أول حياته.. وهى نعمة لا يدّعى بشر أن أحدًا غير الله هو الذي أنعمها.

بل هى نعمة تحمل من الجمال واللطف والإبداع ما تجعلك تصرخ في انبهار: سبحان الله.

لو كان جسد الأم مثلا لا يحتوى على تلك المنطقة التى تتحمل أن يرضع منها الصغير في كل يوم مرات ومرات.. لأصبح كل رضاع عذابا لابد للأم أن تتحمله لكى ترضع وليدها... كيف يكون حالها؟

وكم من الأمهات يشكرن الله على مثل هذا؟؟

بل دعونا نلتقط هذا الخيال.. لو أن الله لم يُعَلِّم للناس الأسماء.. أسماء الأشياء، كيف كان يمكن للناس أن يتعاملوا.. إذا أراد رجل أن يحدث آخرا عن الجبال مثلا، إما أن يذهب بِمُحَدِّثه إلى الجبل أو يأتى بالجبل إلى محدثه.

بل إذا أراد أن يحدثه عن معنى غير محسوس، كالعدالة والحرية والشجاعة والأخلاق.. ماذا كان سيفعل؟؟؟

(١) هذه الفكرة لأخي الحبيب: سراج بكير، وهي خاطرة له أَسَرَّ لي بها في جلسة تأمل.

كم واحدا يا ترى فكّر أن يشكر الله على مثل هذه النعمة؟؟

إذا تحولت كل الدنيا إلى أعداء، وحاولت أن تجد فيها أحدًا يحبك فلم تجد.. كيف تصبح الدنيا حينها؟؟ فإذا تخيلت ورأيتها تصبح جحيما، فكم مرة فكرت في شكر الله أن جعل لك من تطمئن إليه وتأمن له ومن تفضي إليه بهمومك؟

كل من أسدى إليك معروفا وقدم إليك خدمة وأعانك في كرب إنما هو نعمة، نعمة يُشكر عليها الله وحده «فمن أنعم عليه ملك الملوك بشيء ثم رأى لوزير الملك أو لحاشيته مدخلا في هذا فهو إشراك بالملك في النعمة، إذ لم ير النعمة منه من كل وجه، بل رآها منه ومن غيره، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون مُوَحّدا في حق الملك... من الذي سخرهم لك، وألقى في قلبهم الرغبة ويسر الأسباب عليهم حتى أوصلوا النفع لك؟... ولو اعتقدتهم فاعلين شيئًا فهلّا اعتقدت القلم والحبر والورق الذي كتب عليه كلامك فاعلا؟ ولم لا اعتقدت أن الخازن الذي يخرج لك الدراهم[1] فاعلا؟ فإن كنت تعتقد أن كل واحد من هؤلاء مقهور من الملك مجبور، ولو تُرك لنفسه ورأيه لما أعطاك ذرة، فافهم أن كل من وصل لك على يديه خير من المخلوقين، فهو كذلك في قبضة رب العالمين، فاشكره وحده ولا تشرك به أحدًا»[2].

ألا ترى أن نعمة الله فعلا.. لا تعد ولا تحصى؟؟؟

وفي كل نعمة نعم أخرى.. وسبحان الله

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

هل استشعرت؟

هل استشعرت الآن بعضا من هذا اليقين؟؟

هل..؟

أم.....؟؟

(١) أي «موظف الخزنة» الذي يعطيك بأمر من الرئيس أو المدير صاحب السلطة، ولو لم يكن أمر من صاحب المال ما أعطاك أبدا.

(٢) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص٤، ٥. باختصار وتصرف

لا أقصد استشعار هذا اليقين بعد قراءتك ما سبق، إنما سيكون بعد أن تتأمل من خلال عينيك وأذنيك وقلبك وروحك وعقلك في آيات الله التى تراها في كل شيء حولك.. انظر إلى ابنك.. بل إلى نفسك. كيف تَحَوَّلْتَ من قطرة من المنيِّ إلى ذلك الكائن الحى الذي يفيض بالحركة والتفاعل والتأثير في الأشياء والأشخاص من حوله، كائن يفيض كذلك بإحساسات ومشاعر، له رغبات وطموحات وآمال وأحلام.. يسمع ويبصر ويتكلم.. كل هذا من قطرة منيّ، بل هو من حيوان منوي واحد كان ضمن ملايين الحيوانات المنوية السابحة معه داخل قطرة المنى الواحدة.

وكل هذا حدث دون أى تدخل من أى شيء أو قوة إلا قوة الله التى أودعها في القوانين التى تعمل في الكون الفسيح من أول الذرة وحتى المجرة، وما أصغر من ذلك وما أكبر.

لا تكن أعمى..

﴿وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

إن التأمل في خلق الله تبارك وتعالى وفي نعمه وفي أسمائه وصفاته، يجعل اليقين يسرى في العروق كما تسرى الدماء، ففي كل شيء لله آية تشهد له وتقر بعظمته وبوحدانيته تبارك وتعالى، والمرء ما دام ذا قلب متأمل وعقل يقظ، فلن يجد شيئًا في حياته لا يخبره ويذكره بالله.. وعند هذا تستقيم حاله، فإذا أذنب ذنبا أو أتى ما لا يليق به، سارعت آيات الله إلى تذكيره فيعود.. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

- فالكون خير شاهد على حسن الصنعة ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣- ٤].

والنفس تستدعى النظر والتأمل ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وذلك القرآن.. تحدٍ خالد ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

والتاريخ عبرة خالدة، من لم ير فهو لايسمع ولا يبصر ولا يعقل ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

– ثم الأسماء الحسنى.. لا يلحد فيها إلا من وصفهم الله بأنهم أنعام.. بل أضل ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۞ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

[الأعراف: ١٧٩– ١٨٠].

– ثم نعم الله.. نهر يعجز البشر عن عد قطراته ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

آيات تملأ السمع والبصر.. لا تنتهي ولا تنفد.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۞ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۞ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٧– ٣٤].

❊❊❊



الباب الرابع

تأملات

هذه مجموعة خواطر أو تأملات سنحت لي في أوقات مختلفة، ولم تكتب لتوضع في هذا الكتاب، ولكن شاء لها الله هذا.

- أمومة وأبوة.. وألوهية.
- مشاهد بسيطة.. عميقة.. محيرة.
- سيطرة عجيبة.
- الماء.
- بغتة
- جعلناهم أحاديث
- قراءة جديدة لسورة الحديد

أمومة وأبوة.. وألوهية

مشهد مؤثر غاية التأثير ذلك الوالد -أو تلك الأم- الذي يحمل طفله الصغير، فيغمره بنظرات الحب الهائل العميق، وقد لا يملك نفسه فيقبله أصدق قبلة، يحدث هذا بتلقائية ودون إعطاء كثير اهتمام للزمان والمكان.

ويكفي أن يشير الطفل أو يعلن عن رغبته في شراء شيء ما، فلا تجد الأب يتردد لحظة إن كان يملك أن يستجيب لرغبة الطفل، وإن لم يكن يملك أن يستجيب يجتهد في أن يأتي بها استطاع، كما يجتهد في أن يجعل الطفل راضيا باسما.

العجيب في هذا المشهد أن الطفل الذي يتلقى هذا السيل الحنون من الحب لا يشعر به على الإطلاق، ولا ينتبه له، ولا يفكر فيه، ولا يتوقف عنده، وإذا أتاه ما كان يشير إليه فإنه ينشغل به كل الانشغال ولا يفكر للحظة في أن يمتن أو يشكر هذا الوالد.. إنه يأخذه ببساطة..

وهذا الوالد، لا يفكر بدوره في طلب تقدير أو شكر، ولا يسوؤه أن الطفل لم ينتبه له ولا لحبه ولا لمجهوده، ولا يتوقف عند لا مبالاة الطفل بأي شيء إلا بالشيء الذي قد صار بين يديه.

كم أفكر بعد كل مشهد كهذا: تُرى ماذا سيكون حال هذا الطفل مع أبيه عندما يكبر؟ هل سيرعى هذه اللحظة الصادقة حين لم يكن يملك من أمر نفسه شيئًا، وعاش في تلك الحياة فقط بقوة هذا الوالد ومحبته له؟ ترى هل سيتذكر مثل هذا الموقف من الأساس؟

إن مشهد غفلة الطفل عن حب أبويه يثير الخواطر، فهو رغم ما يأخذ من عواطف ومشاعر، وما يبذل له من حب، وما ينفق عليه من أموال، لا ينتبه لهذا أصلا، فضلا عن أن يقدره أو يشكره، والأبوان برغم ما يفعلانه لا يطلبان شكرا إلا أن يروه باسما وراضيا،

فإذا كان هذا وجدا السعادة كلها وأحسا كأن الكون كله رضي عنهما.

هذا المشهد حريّ أن يذكرنا بالعبد الذي يرعاه الله.. هذا العبد المغمور في بحر النعم، الذي سخرت له السموات والأرض وما فيهن، الذي يمارس «حقه» في السمع والبصر والحركة والكلام والفهم والتفكير دون أن ينتبه إلى موجد هذه النعم وخالقها له والمُنعم به عليه.

وهو يسير في الحياة تغمره النعم، ولا يكف عن طلب المزيد.. ثم لا يكف أيضًا عن الغفلة عمن يأتي له بها، ولا يتوقف كثيرًا ولا قليلا ليشكر المعطي صاحب الفضل.

ربما لم يفكر من الأساس بشيء اسمه «حب الله له»، ولا توقف كما ينبغي عند «حق الله عليه»، وهو لا يخطط في المدى القريب والبعيد كيف يرضي الله، بل كيف يشبع رغباته، وقد يطلبها من الله فيكون قد انتبه فقط لأن الله معه.

هل يعرف الطفل الصغير أكثر من هذا عن أبويه؟ هل يعرف أكثر من كونهما موجودين كأنما لا ضرورة لهما في الحياة إلا أن يأتيا له بما يحب؟

وأي شيء أسوأ من هذا التصور في ميزان الحق والحقيقة؟ وما هو مقدار الظلم الذي تعرض له الوالدان بهذه الفكرة؟

وكم مرة نجد الأم تعاني وتقطع البيت ذهابا ومجيئا وراء الطفل الشقي تريده أن يأكل وهو لا يريد، مشهد شديد الإيحاءات يفيض بالمعاني، فهي تعاني من أجله هو، ولإقناعه هو، أو حتى إجباره لأن يأكل، والطفل الشقي لا يريد ولا يرغب، طفل يسير وراء غرائزه.

لو حذفنا من هذا المشهد عواطف الأمومة وسفاهة الطفولة، ماذا نقول، وبم يمكن أن نعلق على مواقف أبطاله؟ ماذا نقول لرجل يجهد نفسه في إطعام رجل آخر بنفس القدر من الإلحاح ثم الآخر يتمنع بنفس القدر من الإصرار؟

ثم إن الولد قد يُشاغب فيذهب إلى ما يضره، وأحيانا يفعل هذا على سبيل العناد لا أكثر (بعضهم يحب أن يسميه «إثبات الذات»)، يحب أن يقترب من المحاذير.. يلعب

بالنار، يقفز من عَلٍ، يداعب الكهرباء، يلهو بالسكين.. وهكذا.

إن اندفاعة الوالد لمنعه من هذا ولو بالقوة مفهومة في إطار العواطف الأبوية، وفي إطار سفاهة الأطفال، لا يجرؤ أحد أن يستنكر على الأب أو الأم أنه ضرب ابنه لما اقترب مما يضره، ولا أحد يدافع عن حق الطفل وحريته في أن يفعل ما يريد بدون وصاية من أحد.

لكن لو حذفنا عاطفة الأبوة، وسفاهة الطفولة من هذا المشهد أيضًا، بم يمكن أن نعلق عليه؟ وماذا يمكن أن نقول ونحن نعرف أننا سنصف حالنا مع الله؟

وما أبلغه من مشهد.

***

قال الفضيل بن عياض: ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل جل جلاله: من أعظم مني جودا؟ الخلائق لي عاصون وأنا أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، أجود بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء، من ذا الذي دعاني فلم ألبه؟ ومن ذا الذي سألني فلم أعطه؟ أنا الجواد ومني الجود، أنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألني وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلق؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون؟[1].

***

(١) ذكره ابن القيم في: شفاء العليل، تحقيق : محمد بدر الدين، دار الفكر، بيروت ، لبنان، ١٣٩٨ - ١٩٧٨، ص ٢٣٨.

مشاهد بسيطة
.. عميقة.. محيرة

نفس الإنسان وحياته، غزيرة بالمعاني الدقيقة التي قد تبدو بسيطة وعميقة في نفس اللحظة، وتعقيدات النفس وما تحمله من مشاعر وأحلام وطموحات ورؤى تبدو كأنها غابة ضخمة متشابكة كلما ازددت فيها عمقا روعك جمالها كما روعك يقينك بأنها ما زالت أوسع من قدرتك على الإحاطة.

وفي الحياة مشاهد ما أبسطها وما أعقدها.. قصص يستطيع الفلاسفة أن يقضوا زهرة حياتهم في تأملها، فلا هم يملون، ولا المشاهد تبهت وتفقد قدرتها على الجاذبية، ولا قدرتها على العطاء.

بعض الروحانيات العميقة التي ترسلها إلينا آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ وأقوال من اقتربوا من الله فعلموا مالم يعلم غيرهم، وقالوا ما لا يستطيع غيرهم أن يفهمه أو يتذوقه.. بعض تلك الروحانيات لا يمكن فهمها بدون النظر والتأمل في بعض مشاهد الحياة.

❊ ❊ ❊

فكرة الموت مثلا، ما أشد بساطتها، وما أشد عمقها، ولا زال شيئًا يحير العقول، واستطاعت أن تفني أجيالا من الفلاسفة والمفكرين قضوا في بحثها أعمارهم وما سبروا أعماقها، وما زالت قادرة على أن تعطي المعاني والأفكار لأجيال وأجيال.. برغم أنها بسيطة.

لكن انظر إلى ذلك التقريب المعجز المبهر لفكرة الموت، يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون»[1].

وهنا يبدو مشهد الموت مفهوما، وأكثر قابلية لأن تستوعبه عقول البشر، لكنه ينقلك

(١) ابن لأثير: الكامل في التاريخ، ١/ ٥٨٥.

من مشهد معجز لا علم لك به، ويتركك في بحر مشهد آخر معجز أيضًا وتظن أنك على علم به.. وهو مشهد النوم.

فمن في البشر استطاع ألا ينام؟ ومَنْ من البشر استطاع مقاومة النوم؟

وما سر تلك اللحظات التي تقضيها غائبا عن الحياة والدنيا، ما سرها في تجديد نشاطك ويقظتك، وعودة الوعي والتركيز إلى عقلك؟ وكيف يبدو ذلك الجسد منهارا في أمس الحاجة إلى لحظات غياب عن الدنيا كي يستطيع النهوض؟ وتلك الحواس التي أضناها الإرهاق تبدو وكأنها لا تستطيع مواصلة الحياة إلا بفترة غياب هي الأخرى.

كأن الإنسان مخلوق غير قادر على الخلود ولو أراد.. وجسمه وعقله وروحه هم أول من سيرفضون هذا الخلود وأول من سيعترضون عليه، بل وأول من سيتوقون إلى الموت والفناء..

مشهد معجز يستطيع أن يمدك بالتأملات بلا انتهاء ولا انقطاع.. مشهد بسيط إلى حد البديهية، وعميق إلى حد الحيرة، وسبحان الله الذي أوجد في حياتنا ما يمكن أن نفهمه لنؤمن بها لم نره بعد.

***

ومشهد اليقين، إذا فكرنا بالمادية المسيطرة على حياتنا سنسأل: كيف يمكن لإنسان أن يثق فيما عند الله أكثر من وثوقه فيما بين يديه؟ أو دعنا نقول: كيف يمكن لأي بشر أن يثق في شيء ليس بيده أكثر من ثقته فيما هو في يده فعلا؟؟

خصوصا إذا كنا نتحدث عن غيب لا تدركه العقول، ولا تستطيع قياسه..

كيف يمكن أن يستشعر إنسان أمنا بلا حدود، وهو قابع في ظروف تضعه في خوف بلا حدود.. كيف يمكن لفقير معدم محاصر بالمشكلات أن يبتسم في راحة واطمئنان وكأنه امتلك الدنيا؟

ما معنى اليقين؟؟ وكيف هو ذلك اليقين؟؟

قد نمضي في التساؤلات والحيرة، لكن الله أوجد لنا مشهدا في الدنيا يقرب الصورة كثيرًا.

مشهد ذلك الطفل الذي إن دفن وجهه في حضن أبيه أو أمه ظن أن الدنيا كلها لا

تستطيع الاقتراب منه أو إيذاءه.. أو ذلك الطفل الهارب نحو أبيه أو أمه من خطر يلاحقه، وهو لا يفكر في أبعد من أن يصل إلى ذلك الحضن.. ذلك الأمان، مع يقينه الذي لا يقترب منه شك أن الوصول إلى ذلك الحضن يعني الأمان. لا تراوده لحظة شك في أن الأب أو الأم لن يكونا قادرين على حمايته.

* * *

مشهد (لا منجى من الله إلا إليه).

لا يمكنك أن تفهم كيف تلجأ إلى مصدر الخوف، راجيا فيه الأمن..

لا يمكنك أن تفهم إلا لو شاهدت طفلا تخاصمه أمه أو حتى تضربه وهو يندفع نحوها، ويرتمي في حضنها باكيا ومعتذرا، راجيا منها الوصال في ذات اللحظة التي تضربه أو تدفعه بعيدا عنها..

مشهد فطري يتم بلا حسابات، ولا تفكير.. معنى مغروس في نفس الطفل، وهو مولود به..

وهنا فقط تعلم وتدرك كيف أنه (لا منجى من الله إلا إليه)..

وتدرك أنك (صنعة الله) ومن أحسن من الله صنعة؟؟

***

ومشهد (البكاء والذل لله).

شيء لا يمكنك أن تفهمه إلا لو شاهدت طفلا يبكي راجيا من أمه أو أبيه.

إنه يبكي، وينتحب.. ويعرف أنه لا طاقة له على تنفيذ رغبته تلك أبدا، لذا يبكي.. ينتحب، وهو في بكائه لا يشعر بالذل قدر ما يشعر بالقوة، ولا يرى بكاءه ضعفا قدر ما يراه قدرة.. وهو يعرف – بفطرته وحدها – أن بكاءه هذا مؤثر وسلاح يمكنه أن يحقق به رغبته.

وسبحان الله.. سبحان الله.. سبحان الله..

سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته..

سبحان من أوجد فيما نفهم، لمحة مما لا نفهم.

سيطرة عجيبة

لاح لى سؤال فجأة وهو: وكيف تسيطر على جوارحك أصلا؟

وأدهشنى السؤال فعلا، فالأصل أن الإنسان يستطيع السيطرة على جوارحه.

لكن الحقيقة المجردة، مهما كانت درجة غفلتنا عنها، تقول: إن هذه الجوارح قد سخرها الله لك، فأمرها بطاعتك، ويوما ما ستفقد هذه السيطرة تمامًا، عند الموت وفي يوم القيامة، وستعمل الجوارح حينها بأمر الله تعالى فتشهد لك أو تشهد عليك.

حينها رفعت أصبع السبابة أمام عينى وصرت أحركه لأعلى ولأسفل، لأحاول اكتشاف كيف أسيطر عليه؟؟ كيف يتحرك؟؟ كيف يستجيب لى دون جهد؟؟ حتى أنا لا أعرف كيف وصلت إليه رغبتى في أن أحركه فتحرك.

بإمكانك أخى القارئ أن تجرب هذا، حرك أى جزء من جسمك، ثم تأمل وحاول أن تكتشف: كيف وصلت إليه رغبتك في أن تحركه، فاستجاب لتلك الرغبة فتحرك.

وتصبح الدهشة والحيرة هى سيدة الموقف.

لقد تحرك أصبعى بالفعل، واستجاب لرغبتى في هذه الحركة بكل انقياد وسهولة، ودون أى نوعية من المشاكل، بمجرد أن أردته أن يتحرك تحرك.

أما كيف استطعت تحريكه؟؟ لا أدرى.

كيف وصلت إليه رغبتى في أن يتحرك؟؟ لا أدرى.

كيف استطيع السيطرة عليه؟؟ لازلت لا أدرى.

ومازلت لا أستطيع التعبير عما حدث، إنما أرجو القارئ أن يجرب هذا بنفسه ليشعر تلك المشاعر.

إن هذه الجوارح التى سخرها الله لنا، فأصبحت منقادة مطيعة مستجيبة دون تفكير، هذه الجوارح قد تخرج عن سيطرتنا بكل بساطة وسهولة.

قد يأتي اليوم الذي تريدها فيه أن تتحرك، فلا تتحرك.. هكذا بلا سبب، وبلا تفسير.

كما كانت تتحرك وتستجيب بلا سبب وبلا تفسير، ستكف عن هذا الانقياد بلا سبب ولا تفسير. لقد سقطت سيطرتك عليها، فكأن لم تكن لك عليها سيطرة أصلا.

صار كل شيء فيك.. تحت سيطرة الله عز وجل.

﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٠- ٢٣].

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

[يس: ٦٥].

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

* * *

المـــــاء

هل أتاك نبأ الماء!

يقال: إن من الصعب شرح الواضح، وتبسيط البسيط.

لكن.. كيف يمكن أن يقال إذا كانت تلك البساطة تسيل بعظمة وإبهار لا حد له!

المـاء..

لا لون.. لا طعم.. لا رائحة، ولا يمكن أن يستغني عنه بشر!

وإذا غاب الماء فدونه كل ذوات الألوان والطعوم والروائح!

وإذا عطشت فلا تطلب إلا الماء، ولا يروي عطشك إلا الماء.. وهو لا لون ولا طعم ولا رائحة. كأنما سر خفي يروي الظمأ، ولا تدري كيف استطاع أن يرويه، فليس له طعم.

وحتى مشهد الماء الزلال الرقراق، مشهد مبدع يروي ظمّأ آخر للعين، ولا تدري كيف ترتاح العين لمشهد الماء.. فليس له لون.

حتى رائحة الماء، ولو أنه لا رائحة له.. لكن اسأل ظمآنا حين يقترب من فمه الماء، ليحكي له روعة الارتواء.

لا تستطيع أن تقول عن الماء شيئًا كثيرًا.. لأن أي كلام يشرحه هو تعقيد لحقيقة الماء البسيطة.. لكن كيف تفعل وطوفان العظمة السيال من تلك الحقيقة البسيطة يملأ نفسك وروحك بجمال لا يستطيع القلم أن يفرغه.

لكل كاتب حيرة واختناقة، حين لا يجد في بضاعته من الكلام ما يُفْرغ به معنى يحتبس في نفسه.. شخصيا: تبدو أكبر حيرة لي في وصف هذا الماء.

إنه شيء، وكل شيء في ذات الوقت. يبدو بلا روح وهو روح كل الحياة. يبدو بلا حياة، وهو سر حياة الأحياء.

إنه سر ومشهد وحال يُلقي الإيمان في القلب.

ربما كان أفضل حل أن أسكت لأتوقف أمام قول الله تعالى المعجز الذي يفيض بكل تلك المعاني البسيطة المعجزة..

قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

* * *

بغتـــــة

حين كنا في أيام الدراسة بالكلية، لم يكن أمام شباب يهوى الكرة إلا أن يلعب في الشارع، والشارع لا يفرغ إلا في أوقات متأخرة من الليل، وإذا جاء آخر الليل حيث يخلو الطريق ويحلو اللعب تكون المشكلة في دوريات الشرطة التي تنقب أجواء المدن ليلا لتمارس شيئًا من عملها وكثيرا من ظُلْمِها، خصوصا لو كنا في أواخر العام الشرطي الذي يجب أن يحرر فيه ضابط الشرطة عددا من المحاضر، مهما كانت ظالمة أو تافهة.. ذلك شرط سادته وكبرائه.

كان يجب علينا أن نلعب بنصف عين، ونصف قلب، ونصف عقل.. لتصرف نصف العين الآخر، ونصف القلب الآخر، ونصف العقل الآخر لمراقبة الطريق تحسبا للهرب بكل العزم وبكل العقل وبكل القلب بمجرد ظهور دورية الشرطة.

الطريف دائمًا، أن اللعب يستولي على كل نصف العين الآخر ونصف العقل الآخر لتفاجأ في لحظة.. لحظة واحدة، كلمح البصر بأن دورية الشرطة قد صارت في منتصف الملعب، وصار الجري غير ذي جدوى، بل ذا خطر.

دائمًا ما كان الأمر ينتهي بسلام حين يعرف الشرطي أننا طلاب في كلية الهندسة (ذلك من فوائد المجال القليلة) وأننا مغتربون.. ولا أنكر أنه لو أراد صناعة مشكلة لفعل، والحمد لله أولا وآخرا.

مع تكرار الحادثة، كان العزم يشتد في نفوسنا على أن ننتبه أشد ونحرص أكثر، فليس مضموننا أن يمضي الأمر دائمًا بسلام.. ودائما نلعب، ساعة ينجحون وساعة يفشلون ويمضي الأمر عموما بسلام، أطرف ما في الأمر أنه ما من مرة كنت فيها معهم ونجحوا.. دائمًا يفشلون!!

مرت الأيام، وما يبقى في ذهني من تلك اللحظات إلا مشهد المفاجأة.

كنت أتعجب حقا، كيف لا ينتبه أحدنا إلى دورية الشرطة إلا وهي في وسطنا تمامًا؟ ألهذا الحد تأخذنا الحماسة ويأخذنا اللعب حتى لا ننتبه إلا بعد أن يقع الفأس في الرأس.

ولإفادة القارئ فإن اللعب ليس مجرما ولا محظورا في قانون، ولكن قانون الطوارئ في مصر، والسلطة السيادية المخولة لأقل رتبة في الشرطة، تجعل من الأفضل لكل أحد ألا يحتك بأي شرطي وأن يتجنبه ما استطاع.

لحظة المفاجأة تلك هي أقوى ما بقي في ذهني منذ تلك الأيام.. كانت قوة المفاجأة تعطيني الدرس على خطورة الغفلة والنسيان.

كانت تلك الحكاية التي تقرب الصورة.

أما الصورة نفسها، فهو مشهد حكاه الله تعالى عن عذابه لثمود قوم صالح حين كذبوا برسالة النبي، فأرسل الله عليهم صاعقة، فكان هذا وصفها:

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ۞ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۞ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣- ٤٥].

لقد جاءتهم الصاعقة في لا زمن، وكأنه مهما تصاغر الزمن توجد بين اللحظات فجوات ليس فيها زمن، في فجوة منها انبثقت الصاعقة، فلقد أخذتهم (وهم ينظرون).. في عمق الحياة العادية، حتى أنهم من المفاجأة، أو من العذاب، أو من كليهما ما (استطاعوا من قيام).

أخذتهم الصاعقة في لحظة.. وربما كانت اللحظة زمنا أطول من زمن الصاعقة.

أخذوا، وفوجئوا، وعذبوا.. كل هذا في لحظة. (ففروا إلى الله).

* * *

جعلناهم أحاديث

إن في حياتنا اليومية مشاهد ذات دلالات عميقة حقا، غير أننا نغفل عنها.

ربما بحكم حبي للتاريخ يأتي على رأس هذه المشاهد آثار الأقدمين، إنها تقف كدليل بلاغته تتدفق من صمته، درس قائم للعين منساب إلى الوجدان محاور للعقل.. كل هذا في آن واحد.

الإحساس بأن تلك المباني والمعابد والمنارات والقصور والبيوت والمساجد بناها أقوام منهم من مات قبل مائة سنة، ومنهم من انتهى قبل سبعة آلاف سنة، إحساس يصعق الإنسان فيرده كثيرًا عن شعوره بأهميته، إذ هو – بكل حياته – شيء غير ذي بال في عمر الأمم والحضارات.

إن الإحساس بأن البشر يتدفقون على هذه الأرض منذ آلاف السنين، وسيستمرون في التوالد والتكاثر ثم الموت والانتهاء والنسيان.. يجعل الإدراك بفردية الإنسان وضآلة عمره وتفاهة شأنه بالنظر لتاريخ الأرض قويا وحيا.

شعور يدفع نحو السجود للإله الذي يعلو على الزمان، الإله الذي كان قبل أن يكون شيء، وخلق كل شيء، وملايين البشر على طول السنين كانوا تحت عينه وفي قبضته ولا يخرجون عن قدرته ومشيئته.

بعد إدراك حقيقة الفرد لنفسه بالنسبة لهذا الكون ولهذا التاريخ المديد، لا بد له أن يتهيب أمر الحياة وقضية الوجود، فإن الدنيا ليست هي يومه المحدود وعمره القصير، ولا قضايا الوجود هي قضية عمله وبيته ورزقه.. إن الأمر أكبر من هذا وأعظم.

وتلك هي عبرة التاريخ، وبلاغة الآثار.. مبان تقف شاهدة تخبر عمن بناها، ذلك الذي قد انتهت حياته على الأرض وانتهت حياة أحفاد أحفاده، وأحفاد أحفادهم، وما

عاد لهم ذكر ولا يسمع بهم أحد، قد غابوا عن الدنيا، وغابت عنهم الدنيا، ولو لم يكن من أثرٍ ما كان طيف ذكراهم قد مر على قلب أحد.

وتقف شاهدة على أزمان بُنيت فيها، أزمان وعصور قد تلاشت واختفت.. بلاد وأمصار وأسواق وحكام ورعايا وطرائق عيش وعادات واعتقادات.. عصور غابت عن الدنيا، وغابت عنها الدنيا، ولو لم يكن من أثرٍ ما كان طيف ذكراها قد مر على قلب أحد.

إن هذا يدفع نحو التفكر الحقيقي في شأن القوة التي تعلو على كل هذا، وتسيطر على كل هذا.. القوة التي تفنى الأكوان والأزمان، ولا يمسها ذلك بشيء.. تفكر يقذف في النفس رهبة الخلود، وجلالة الزمان السرمدي.. رهبة وجلال تتصاغر أمام جلال الجليل جل جلاله.

لم يبق من أقوام العصور إلا آثارهم.. وبعض أقاصيص تنبئ عن أخبارهم، أخبار الماضي الذي يغري قِدَمُه باختلاق الأساطير..

وقد لا تبقى الآثار كذلك؛ لقد قام العالم المصري القدير الأستاذ محمد رمزي بتأليف موسوعة عن البلاد المصرية، وسماها «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م»، وقد بذل الرجل مجهودا خارقا حقا في تجميع سيرة البلاد المصرية والقرى والنواحي والمديريات، جمعها من بطون الكتب ومن سجلات الحكومات القديمة مما لم يضع في أعاصير الأيام، ومن أفواه الشيوخ والمسنين حتى أخرج عملا ممتازا لا يستغني عنه باحث في هذا الشأن.

خرج هذا العمل في ستة مجلدات، لكن المثير للنظر وللعقل أن المجلد الأول كان كله عن «البلاد المندثرة»؛ تلك البلاد التي كانت ذات يوم بلادا وعاش فيها رجال، ودارت فيها حياة، ونشبت فيها أفراح وأحزان، والتهبت فيها صراعات ومعارك، ووقعت فيها حوادث وجرائم.. كل ذلك قد اختفي من على وجه الأرض، واختفت معه البلد ذاتها، أو ذابت في بلدة نشأت إلى جانبها فعملت تقلبات الزمان على خراب الأولى وتعمير الثانية.

ولولا أن البلد قد سجل اسمها مؤرخ في كتاب أو موظف في سجل لما عرف

المعاصرون الآن عنها شيئًا على الإطلاق. لقد استطاع المؤلف أن يحصي ٢٠٧٥ قرية مصرية مندرسة، وهذا العدد يساوي تقريبًا نصف قرى مصر (٤٥٪ على وجه الدقة) إلى زمان المؤلف، الذي توفي عام ١٩٤٥م.

وصار مألوفا في هذا المجلد الأول أن يقال «قرية كذا.. وردت في كتاب كذا» وفقط.

في هذه اللحظة تشعر بأن مسار التاريخ مسار كبير.. قوي.. قاهر، مسار تفنى فيه البلاد والعباد والحضارات والقصور المشيدة، مسار قد يُسفر عن أطلال وآثار، أو قد لا يسفر عن شيء، فكأنها ﴿لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾.. مسار لا يبقي من التاريخ إلا الذكرى.. والذكرى ليست إلا قصصا وأحاديث.

أحاديث جديرة بأن تجعل النفس ترتد إلى حقيقتها، تفكر في أمرها لتعرف قدرها وحجمها وقدرتها الحقيقية، وسبحان ذي القدرة إذ يقول ﴿بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾.

كيف لمن كان ملء السمع والبصر ألا يبقى منه سوى «أحاديث».. مجرد قصص تخبر عن حاله وعصره، ولا أكثر، تتلى على الأطفال أو في مجالس الأسمار.. ما تلك القوة التي صيرته إلى «أحاديث»؟؟

تلك قوة الله.. جل شأن الله.

يجب أن يعرفها كل قوم لا يؤمنون بها.. أو قل: لا يشعرون بها ولا يفكرون فيها.

وذلك شعاع من نور قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ۞ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ۞ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٢].

***

قراءة جديدة لسورة الحديد

تبدو سورة الحديد، وكأنها تدور حول موضوع رئيسي واحد: الإنفاق في سبيل الله. فكأن هذا هو موضوعها الكبير الذي تصب في معناه أجزاء السورة[1].

ففي أول السورة حديث عن الله، الإله الواحد الذي تسبح له السموات والأرض وما فيهن، والذي له ملك السموات والأرض، الأول والآخر، الذي يعلم شأن الأرض وأرزاقها ومواردها وثرواتها، ما يدخل فيها من مطر وغيره، وما يخرج منها من زرع ونبات وثمار وغيره، وما يتكون فيها من ثروات ومعادن، كما يعلم شأن السماء ما ينزل منها من رزق ومطر، وما يصعد إليها من الأعمال والملائكة، وهو الذي يعلم شؤون خلقه أين ما كانوا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فهو -وحده- مالك السموات والأرض، وكل من يتصور أنه يملك شيئًا فعلى سبيل المجاز، وفي زمن مؤقت محدود، بينما الملك على الحقيقة لله تبارك وتعالى، والدليل أنه هو وحده الذي إليه تُرجع الأمور.

وأنه وحده الذي يُسَيِّر الشؤون الكبرى لهذا الكون، فليس غيره من يستطيع أن يولج الليل في النهار وأن يولج النهار في الليل، وأي شأن في حياة الإنسان أكبر من أن يتغير حوله الكون من ليل إلى نهار؟ ومن نهار إلى ليل؟ شمس تشرق ثم تغيب، فلا يملك أحد في الكون أن يحركها أو يوقفها أو حتى يبطئ من حركتها. بل مجرد التفكير في هذا بَهت

(١) هذا ما بدا لي في قراءة للسورة، وقد راجعت ما تيسر من كتب التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، فلم أر من سبقني لهذا المعنى ممن تناولوا السورة، وقد كنت أتمنى أن يكون قد سبقني أحد فأستفيد منه واستأنس لرؤيتي به، أما والحال هكذا فهذه خاطرة أخيكم، فما كان من خير فمن عند الله وبتوفيقه، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان.

النمرود لما قال له إبراهيم ﷺ: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثم إنه -تبارك وتعالى- مع هذه القدرة التي تحرك الأجرام الكبار، وتسيطر على الشئون العظام في حياة البشر، لا تخفى عليه أدق الدقائق وأخفى الخفايا، ولا حتى خاطرات الصدور، ولا حتى وسوسات النفوس، ولا حديث السر للسر في السر ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

اقرأوا الآيات:

﴿سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۞ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

[الحديد: ١ - ٦].

***

وبعد هذا البيان الذي يوضح للأذهان حقيقة أن البشر على هذه الأرض لا يملكون شيئًا في ميزان الحق والحقيقة، يقول الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، والمعنى واضح: أنفقوا، فهذا مقتضى إيمانكم بالله الذي تسبح له السموات والأرض.. العزيز.. الحكيم.. الأول.. الآخر.. الظاهر.. الباطن.. الذي هو بكل شيء عليم.. الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام.. الذي أحاط بما في الأرض وما في السماء.. الذي له ملك السموات والأرض.. الذي إليه ترجع الأمور.. الذي يقلب الليل والنهار.. العليم بما في الصدور.

يا من آمنوا بهذا.. أنفقوا ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾.

أي أنفقوا من هذا الذي لا تملكونه بل أنتم متصرفين فيه مثلما يتصرف الوكيل في مال المالك الأصلي، والوصي في مال الذي هو وصي عليه.

أنفقوا من أموال لا تملكونها على وجه الحقيقة، بل أنتم مستخلفين فيها، وعما قريب تتركونها أو تترككم.

أنفقوا في سبيل الله، فلن يبقى لكم شيء ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ولن يستوي من أنفق في وقت الضعف والقلة مع من أنفق في وقت العزة والنصرة، ولكن كلاهما له الجنة.

وإنها لدعوة فياضة بالمعاني إذ تسمع قول الله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].. فإنها دعوة تفيض برحمة الله.

رحمة الله إذ يسمي الذي أنفق في سبيله كأنما أقرضه.. أَقْرَضَ الله!!.. الله الذي يملك السموات والأرض! وتسبح له السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن! الله الذي له ميراث السموات والأرض! الله الذي يملك على الحقيقة يحث بصيغة الطلب والاستفهام عبيده أن ينفقوا في سبيله فيقول لهم: أقرضوني قرضا حسنا، وأنا أضاعفه لكم!!

رحمة الله إذ يعلم من نفوس عباده بخلا وشحا، فيطلب منهم قرضا، ويعدهم بأنه سيعطيه لهم أضعافا مضاعفة، لا يطلب منهم عطاء أو منحة لا ترد، أو يطلبها حتى على سبيل الشكر وتوفية شيء من نعمه السابغة، بل لا يطلبها حقا، وهو صاحبها وواهبها ومالكها على الحقيقة.

رحمة الله إذ يعطي القرض المضاعف، ثم يعطي بعده أجرا كريما!!

وقال المفسرون إن الأجر الكريم هو الجنة، أي أن سداد القرض بالمضاعفة هو سداد في الدنيا قبل الآخرة، وهذا وعد من يملك ويقدر.

ألا ما أحنّها من دعوة؟

دعوة تثير الخجل وتقف بالنفس أمام حقيقتها المخزية.. حقيقة بخلها حتى بما لا تملك، وبخلها بما سيذهب من يدها، ثم بخلها بكل هذا على واهب النعم وصاحب

الفضل، على الذي يملك السموات والأرض، على الذي إليه ترجع الأمور.

﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ٧-١١].

***

ثم ينتقل سياق السورة إلى المصير إلى اليوم الآخر، حيث لم يبق شيء، ولم يعد أحد يملك شيئًا.

وإن اللافت للنظر في هذا السياق أنه تصوير لحال المؤمنين والمنافقين، ولا يأتي على ذكر الكافرين، فهي حكاية ومقارنة بين مؤمن صادق وبين منافق ادعى الإيمان دعوى ظاهرية، ولم يكن الإيمان حقيقة نفسه، والتتابع في السياق يفيد بأن هذا هو حال المؤمنين المتصدقين مقارنة بحال المنافقين فتنوا أنفسهم فأسرتهم اللذات والشهوات الشخصية، وأجلوا التوبة وارتابوا في الله وفي وعده وغرتهم الحياة الدنيا.

والسياق مليء بألفاظ وإيحاءات ودلالات العطاء والإنفاق.

فالمؤمنون «يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ»، والمنافقون يطلبون العطاء من المؤمنين «انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ».

والإيحاء في لفظ «نقتبس» يذهب بالخيال إلى مشهد الفقير الذي يطلب الصدقة، فهو يطلب شيئًا بسيطا صغيرا، لن يضر بصاحب المال إذا أنفقه.. لن يؤثر في حجم المال، أو صاحب المال الذي يرفض أن «يقتبس» أحد من ماله، ويمنع هو أن يخرج الشيء البسيط من عنده. إنه يمنع ما ينفع المحتاج ولا يضره هو.

أليس مشهدا مشابها، وجزاء من جنس العمل؟

يُمنعون يوم القيامة أن يقتبسوا نورا يمشون به، ولن يضر نور اقتبسوه أصحاب الإيمان.

بل يقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، فيكون ذلك منعا كما سبق لهم أن منعوا، وطردًا كما سبق لهم أن طردوا، ثم يحال بينهم وبين النور.

ويومئذ لا ينفعهم المال، فلا تؤخذ منهم فدية، وهنا يُذكر لأول مرة الذين كفروا، يأتي ذكرهم ليقال لهم: لن تؤخذ منكم فدية، تمامًا مثلما لم تؤخذ من الذين كفروا، ومأواكم النار التي هي مأوى الذين كفروا.. بئس المصير.

وحينما لا يُقال في هذا الموقف ولا يُذَكَّرون بشيء من وسائل النجاة إلا الفدية، فإنه يعطي إشارة إلى أن المُخاطبين بهذا الكلام تصوروا أو فكروا أو تمنوا أن الفدية ودفع الأموال يمكن أن ينجيهم وينقذهم من هذا العذاب، وهذه طريقة تفكير البخلاء والممسكين إذا أحاطت بهم المصائب، فالبعض يحسب أن كل مشكلة يمكن أن تحلها الأموال، وكل مصيبة يمكن النجاة منها بدفع الأموال.

إن ذكر الفدية هنا فقط دليل على أنهم قوم بخلاء، سُئلوا المال من قبل فمنعوه، فاليوم لا يُسأَلونه ولا ينفعهم.

ثم يتوجه الخطاب القرآني للمؤمنين، يعاتبهم: ألم يأت أوان أن تخشع قلوبهم لذكر الله وللحق، وعاتب الله المؤمنين بهذه الآية بعد أربع سنوات فقط من إسلامهم، كما في صحيح مسلم، ثم يحذرهم من أن تقسو قلوبهم، مثلما قست قلوب أهل الكتاب من قبل حين طال إهمالهم لذكر الله، ففسقوا.

ثم يطمئن الله الذين آمنوا فيذكرهم بأن الله القادر على إحياء الأرض بعد موتها، وتحويلها إلى المروج والزروع والثمار من بعد ما كانت أرضا قاحلة وميتة، قادر على أن يحيي القلوب التي قست، فيجعلها حية خاشعة.

ثم يعود السياق القرآني ليُذَكِّر المؤمنين بأن التصدق والإنفاق في سبيل الله هو بمثابة

إقراض لله عز وجل، وهو القرض الذي يَعِد الله أن يرده أضعافا مضاعفة، ثم يعطي فوق الأضعاف المضاعفة أجر كريم.

إنه نفس المعنى، بل تكاد تكون نفس الألفاظ الموجودة في الآية الحادية عشرة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، وهي الآية التي سبقت وصف الله تعالى لحال المؤمنين والمنافقين في يوم القيامة.. إنها تتكرر الآن، ولكن في سياق آخر: بعدما حذر الله المؤمنين من إهمال كتابهم ومن قسوة قلوبهم.

وكأن طريق الخشوع، وتجنب قسوة القلب، يكون بالإنفاق في سبيل الله..

كأن بداية حياة القلب التي هي مثل حياة الأرض تكون بالتصدق، بإقراض الله تبارك وتعالى..

ومثلما أنت تنفق في الأرض البذور، فتعطي الأرض أضعافا مضاعفة، كذلك إذا أقرضت الله يعيده إليك الله أضعافا مضاعفة، ومثلما كان عليك أن تنفق أولا في الأرض ثم تنتظر العائد الكثير، يكون عليك أن تنفق في سبيل الله تعالى ثم تنتظر أن يحيي الله قلبك كما يحيي الأرض بعد موتها، وأن يضاعف لك أموالك أضعافا كثيرة.

وإنها دعوة لمن قسى قلبه أن ينفق، فإن الله هو من ذكر الإنفاق بعدما حذر من قسوة القلب الذي طال عليه الأمد.

ويُختَتم هذا المقطع بآية تفرق بين المؤمنين وغيرهم، فكأنها تصف حال الناس إزاء كلام الله، فمنهم من صدّق وعد الله وكلام الله، ومنهم من كفر بالله وكذب بآياته فلم يصدقها، ولم يعمل بها، يَذْكُر الله تعالى أن المؤمنين هم الذين يصدقون الله ورسوله، هم الصديقون، وهم الشهداء، وأولئك لهم أجرهم ونورهم، وأما المكذبين فأولئك أصحاب الجحيم.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا

فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ ۞ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٢-١٩].

***

أما المقطع القادم فلا نكاد نحتاج فيه إلى بيان، ولو شئنا أن نضع له عنوانا، فما أظننا سنختلف على من يقول إن عنوانه «أنفقوا في سبيل الله».

فالآيات الخمس تحمل هذه الرسائل بالترتيب:

١- الحياة الدنيا لعب ولهو ومظاهر وزخارف مثل النبات المروج والحدائق التي تعجب قصار النظر فلا يفكرون في نهايتها، فما هو إلا قليل حتى يصفر هذا النبات الجميل، ثم يتيبس فيفقد نضارته وزهرته، ثم يكون هشيما محطما.. فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، ليست بمتاع حقيقي مستقر ولا خالد.

٢- ولهذا.. لا تتعلقوا بهذا المتاع الزائف والزائل والذي سيتحطم قريبا، وانطلقوا إلى متاع جنة عرضها السموات والأرض.

٣- واعلموا أن كل شيء في هذه الدنيا من الأرزاق والأموال والأحداث مقدر عند الله من قبل أن يقع، حتى لا تحزنوا على ما فقدتم ولا تطيروا فرحا بما حصلتم عليه، فالله لا يحب المختال المتباهي المتفاخر المتكبر.

ثم تأتي الآية التي تفسر من هو المختال الفخور، فهم الذين يبخلون، ويأمرون الناس بالبخل..

بل هي تفسر كل ما سبق من آيات، وفيها توجيه وإرشاد، فإذا كانت الدنيا متاع غرور، وكان المتاع الحقيقي في الآخرة في جنة عرضها السموات والأرض، وكانت الأرزاق والأموال مقدرة مكتوبة من قبل أن يوجد البشر وتوجد الأحداث، فما معنى أن يتفاخر المرء ويتباهي ويتكبر؟..

ما معني أن يبخل؟..

لا.. بل ويأمر غيره بالبخل؟ بالبخل على الله.. على الله..

ما هذا الجحود؟ بل ما هذا الجنون؟.. فإن الله هو الغني الحميد.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۞ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۞ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٠- ٢٤].

***

وتختم السورة بخمس آيات أخر تُقِر حقائق الحياة بلهجة حازمة.

١- الله أرسل الرسل بالمعجزات وبالكتب لتعتدل حياة الناس.

٢- وأنزل الحديد، فيه البأس والشدة، وفيه منافع للناس.

٣- إن هذه أمور ليتبين بها من الذي آمن بالله ونصره وهو لم يره.

٤- إن الناس رغم توالي الرسل بالمعجزات، منهم مؤمنون سيأخذون أجرهم وأكثرهم فاسقون.

٥- من آمن فله رحمة واسعة، وله من الله نور، ومغفرة فالله غفور رحيم.

٦- لا حرج على فضل الله، ولا يملك أحد أن يمنع فضل الله، فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وفي هذه الآيات الخمس لا نجد قيمة الإنفاق على وجه الخصوص حاضرة بوضوح كما فيما مضى من السورة، ولكن إعادة التذكير بحقائق الإيمان، وحقائق التاريخ، وحقائق الأمم تدعم الحقيقة الكبرى، حقيقة فناء الدنيا وفناء الناس، وحقيقة أن الله هو من يمنح ويعطي ويتفضل، بلا حرج على فضله، وبلا شرط على عطائه، فهو ذو الفضل العظيم يرسل الرسل ويشرع الشرائع لتعتدل حياة الناس، ويخلق لهم ما فيه منافعهم، ومن فضله أن يجعل الفضل في ذرية المؤمنين، وأن يلقي الرحمة والرأفة في قلوب المُتَّبِعين، وأنه يعطي الأجرين والأكثر، ثم يعطي معها النور والغفران.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٥- ٢٩].

قال الطغرائي:

يقولون أبق المال واجمعه ممسكا ... فعز الفتى في أن يجم ثراؤه

فقلت كلانا لا محالة هالك ... فأهون عندي من فنائي فناؤه

ثراء الفتى من دون إنفاقه له ... فساد وإنفاق الثراء نماؤه

فأنفق فإن العين يركد ماؤها ... فيأسن، والمنزوح يعذب ماؤه

* * *

خاتمـــة

كان ما سبق من سطور مجرد لفت نظر إلى أهمية عبادة التأمل والتفكر، وهى عبادة على سهولتها ويسرها تغرس في القلب معنى اليقين بالله تبارك وتعالى.

أسأل الله أن ينفع بهذه السطور كل من يقرأها، وأسأله تعالى أن يكتبها في ميزان الحسنات وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم جل وعلا، وان ينقيها من كل شائبة من ذنب أو من أمراض القلوب.

كما أسأل أخى القارئ ألّا ينسانى بدعاء صادق، فإنه دعوته إن شاء الله مستجابة، وله بمثلها كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ.

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وماكان من خطأ أو سهو أو نسيان فمنى ومن الشيطان.

استقبل التعليقات والتصحيحات على:

moh_elhamy@yahoo.com

والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد إلهامي

http://melhamy.tadwen.com

* * *

ملحقات الكتاب

سرعة الضوء ثابت كوني من خلال القرآن

اكتشف العالم المعروف: أينشتاين سرعة الضوء وأنها تساوي: ٢٩٩٧٩٢,٥ كم في الثانية، ولكن المذهل ما اكتشفه مؤخرا أحد العلماء أن هذا الرقم يمكن استنتاجه من آية بالقرآن الكريم، لتكون دليلا جديدا ضد من يزعم أن القرآن من تأليف محمد بن عبد الله ﷺ.

سرعة الضوء طبقا للجنة المعايير الأمريكية: ٢٩٩٧٩٢,٤٥٧٤ +- ٠,٠٠١١ كم ثانية.

وطبقا للجنة المعايير البريطانية: ٢٩٩٧٩٢,٤٥٩٠ +- ٠,٠٠٠٨ كم/ ثانية

ولقد قام المؤتمر العالمي للمقاييس والوحدات بتعريف المتر على أنه: «هو طول المسار الذي يقطعه الضوء خلال أنبوبه في زمن قدره ١ على ٢٩٩٧٩٢٤٥٨ من الثانية». و تنص نظرية النسبية على أن سرعة الضوء هي الحد الأقصى لأي سرعة يمكن أن تبلغها جميع الأجسام المعروفة.

من ألف و أربعمائة عام مضت نزل القرآن الكريم كلام الله عز وجل على محمد ﷺ. معجزة خلبت قلوب العجم قبل العرب، و تحدى الله البشر إن كانوا يشكون في نبوة نبيه أن يأتوا بكتاب مثله إن كانوا صادقين.

أولًا: من المعلوم أن حساب السنين في القرآن الكريم يعتمد على السنة القمرية وليس السنة الشمسية. أي أن طريقة الحساب المتبعة في عدد السنين هي السنوات القمرية، والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

إن من المعروف أن القمر يدور حول الأرض بنفس السرعة التي يدور بها حول نفسه (٢٩,٥٣ يوما) مما يعني أننا نرى جانبا واحدا من سطح القمر، و يسمى الجانب الآخر بالجانب المظلم بالرغم من أنه ليس بمظلم طوال الوقت، و تسمى هذه الفترة بالشهر الاقتراني الذي يبلغ ٢٩,٥٣ يوما. و لذلك في التقويم القمري الشهري يكون إما ٢٩ يوما أو ٣٠ يوما. لكن يجب الانتباه هنا إلى أن الأرض تدور حول الشمس، و بالتالي فالقمر يدور حول الشمس أيضًا نتيجة دورانه حول الأرض، فخلال دوران القمر حول الأرض أثناء الشهر الاقتراني، تكون الأرض (و بالتالي مدار القمر) قد قطعت مسافة في دورانها حول القمر. فموقع القمر بالنسبة للنجوم قد تغير. فالوقت الذي يستغرقه القمر ليعود لنفس مكانه بالسماء (كما يرى من الأرض) يسمى بالشهر الفلكي (٢٧,٣٢ يوم) حيث يعبر عن الوقت الصافي الذي تستغرقه دورة واحدة في مدار القمر. هذا المدار هو دائري تقريبًا بمعدل نصف قطر r يساوي ٣٨٤٢٦٤ كم. راجع الجدول أدناه (من المهم التفريق بين t و بين T).

الفترة	الفلكي	الاقتراني
الشهر القمري T	27.321661 يومًا = ٧١٩٨٦,٦٥٥ ساعة	29.53059 يومًا
اليوم الأرضي t	23 ساعة و ٥٦ دقيقة و ٠٩٠٦,٤ ثواني = ٠٩٠٦,٨٦١٦٤ ثانية	24 ساعة= ٨٦٤٠٠ ثانية

و في الآية السابقة (١٠ : ٥) نلاحظ أنها فرقت بين الفترة فترة الاقتران الظاهرية لمعرفة عدد السنين و بين الفترة الفلكية الحقيقية لمعرفة الحساب، ولذلك نحن الآن ملزمين في حساباتنا باستعمال النظام الفلكي الحقيقي للشهر القمري واليوم الأرضي. ودقة حساباتنا تعتمد على هذين الرقمين.

يقول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]. فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن بعض الملائكة التي تعرج من السماء إلى الأرض.

والمعلوم أن المقصود من هذه الآية أن هذه الملائكة تعرج من السماء إلى الأرض

وتقطع المسافة التي يقطعها القمر في ألف سنة قمرية في يوم واحد (أي أنها تقطع تلك المسافة في يوم يوازي: ١٢ ألف شهر قمري). والسؤال هنا: ما هي تلك المخلوقات العجيبة؟ وما هي السرعة التي يمكن أن تصل إليها حتى تتمكن من تلك الخاصية المدهشة؟

هدفنا الآن: (١) أن نحسب المسافة الفلكية الحقيقية التي يقطعها القمر خلال ألف سنة (٢) أن نحسب السرعة الازمة لنقطع هذه المسافة خلال يوم واحد فقط عن طريق القاعدة البسيطة: السرعة تساوي المسافة على الزمن

لفهم تلك الآية فهمًا صحيحًا، دعونا نتحدث عن معادلة هامّة:

قلنا أن مسافة الألف سنة هو طول المسار الذي يقطعه القمر في خلال ١٢٠٠٠ شهر، أي أن:

(المعادلة الأولى) $C*t= 12000\ L$

حيث C هي سرعة الملائكة، و t هو الزمن الذي يستغرقه القمر في دورة فلكية واحدة حول الأرض و هو كما ذكرنا من قبل (٢٣ ساعة و ٥٦ دقيقة و ٠٩٠٦ , ٤ ثانية) أي: ٠٩٠٦ , ٨٦١٦٤ ثانية. و L هي المسافة التي يقطها القمر في دورانه في شهر فلكي واحد حول الأرض دون الأخذ بالاعتبار دوران الأرض (و بالتالي مدار القمر) حول الشمس.

دعونا نأخذ V أنها هي السرعة الزاويّة المتوسطة لسرعة القمر في المسار الخاص به، و هي تستنتج من طول نصف القطر المتوسط بين المسار و الأرض. فيكون: $V = 2\ Pi\ T\ /*\ R$

و بالتعويض عن R بـ: ٣٨٤٢٦٤ كم.. و T بـ ٧١٩٨٦ , ٦٥٥ ساعة (و هي فترة الاقتران التي تبلغ ٥٣٠٥٩ , ٢٩ يوم أي متوسط الوقت بين مرور قمرين)

فنتج عن ذلك: $V= (2*3.146*384264) / (655.71986) = 3682.07$ كم\ساعة

و هذه القيمة معطاة في كل كتب الفلك و تم مراجعتها و اعتمادها من قبل وكالة ناسا.

و دعونا بذلك نقول أن @ هو الملك يجري حول الشمس وفق قواعد النظام الأرضي-القمري خلال شهر فلكي واحد (٢٧,٣٢١٦٦١ يوما). فإذا أخذنا بالاعتبار فترة سنة شمسية (٣٦٥,٢٥٦٣٦ يومًا) فيمكننا بذلك حساب @

@ = (٢٧,٣٢١٦٦١*٣٦٠) / ٣٦٥,٢٥٦٣٦ = ٢٦,٩٢٨٤٨

حيث @ هو الثابت الذي يعتمد على زمن الشهر و العام الذي يدور فيه القمر.

و حيث أن وجود الش

مس سيغير الخصائص الجاذبية للفضاء و الوقت، يجب أن نعزل تأثير جاذبيتها من على النظام الأرضي-القمري بأن نتجاهل دوران النظام الأرضي-القمري حول الشمس، فإذا اعتبرنا الأرض ثابتة أمكننا أن نطبق القاعدة VO=V cosO لنحسب السرعة الزاويّة الصافية للقمر، و بذلك يمكننا حساب المسافة الخطية التي يقطعها القمر خلال شهر فلكي واحد.

L = V cos @ T (المعادلة الثانية)

بتعويض المعادلة الثانية في المعادلة الأولى نحصل على:

C =12000 V cos @ T/t

و بتعويض قيم الثوابت من الجدول أعلاه؛ حيث cos@ = cos 26.92848 = 0.89157 و V = ٣٦٨٢,٠٧ كم/ سا نحصل على:

C=12000 x 3682.07 x 0.89157 x 655.71986/86164.0906

.:. C = 299792.5 كم/ بالثانية

و هي السرعة التي تجري بها تلك الملائكة في الكون و هي مطابقة تمامًا لسرعة الضوء التي تعتبر أقصى سرعة يمكن أن تبلغها الأجسام الكونية التي نعرفها حتى الآن. و هذا الحساب يتعلق بدقة الأرقام التي نعلمها عن مدة دوران القمر حول الأرض.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

قصيــــــدة[1]

لله في الآفـــاق آيـــات لعـــل أقلــها هــو مــا إليــه هـــداكا

ولعـل مـا في الـنفس مـن آياتـه عجبٌ عجـاب لـو تـرى عيناكـا

والكـــون مشحـــون بـــأسرار إذا حاولـت تفسـيرًا لهـا أعياكـا

قـل للطبيـب تخطفتـه يـد الـردى يـا شـافي الأمـراض: مـن أرداكـا؟

قـل للمـريض نجـا وعـوفي بعـدما عجـزت فنـون الطـب: مـن عافاكـا

قـل للصـحيح يمـوت لا مـن علـة مـن بالمنـايا يـا صـحيح دهـاكا؟؟

قـل للبصـير وكـان يحـذر حفـرة فهـوى بهـا مـن ذا الـذي أهواكـا؟

بل سائل الأعمـى خطـا بـين الزحـام بـلا اصطـدام: مـن يقـود خطاكـا؟

قـل للجنـين يعـيش معـزولا بـلا راع ومرعـى: مـا الـذي يرعاكـا؟

قـل للوليـد بكـى وأجهـش بالبـكا لـدى الـولادة: مـا الـذي أبـكاكا؟

وإذا تـرى الثعبـان ينفـث سمّـه فاسـأله: مـن ذا بالسـموم حشـاكا؟

اسـأله كيـف تعـيش يـا ثعبـان أو تحيـا وهــذا السـم يمـلأ فـاكا؟

واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهـدا وقـل للشـهد: مـن حلاكـا؟

بـل سـائل اللـبن المصـفى كـان بين دم ورفـث: مـا الـذي صـفاكا؟

وإذا رأيـت الحـي يخـرج مـن حنـ يا ميت فأساله: مـن الـذي أحياكـا؟

قـل للهـواء تحسـه الأيـدي ويختفـي عـن عيـون النـاس: مـن أخفاكـا؟

قـل للنبـات يجـف بعـد تعهـد ورعايـة: مـن بالجفـاف رمـاكا؟

وإذا رأيـت البـدر يسرى نـاشرًا أنـواره فاسألـه: مـن أسراكـا؟

واسـأل شـعاع الشـمس يـدنو وهـي أبعـد كـل شيء مـال ذي أدناكـا؟

قـل للمريـر مـن الـثمار مـن الـذي بـالمر مـن دون الـثمار غـذاكا؟

وإذا رأيـت النخـل مشـوقو النـوى فاسأله: مـن يـا نخـل شـوق نواكـا؟

---

(١) أعتذر لكاتب هذه القصيدة ثم للقارئ الكريم، لعدم عثوري على صاحبها رغم محاولة البحث عنه كثيرًا.

وإذا رأيـت النـار شـبّ لهيبهـا — فاسأل لهيب النار؟ مـن أوراكـا؟
وإذا تـرى الجبـل الأشـم مناطحـا — قمم السحاب فسله: من أرساكا؟
وإذا تـرى صـخرا تفـجّر بالميـاه — فسله: مـن بالمـاء شـق صـفاكا؟
وإذا رأيـت النهـر بالعـذب الـزلال — جرى فسله: مـن الـذي أجراكـا.؟
وإذا رأيـت البحـر بـالملح الأجـاج — طغى، فسله: مـن الـذي أطغاكـا؟
وإذا رأيـت الليـل يغشـى داجيـًا — فاسأله: مـن يـا ليـل حـاك دجاكـا؟
وإذا رأيـت الصـبح يسـفر ضـاحيا — فاسأله: من يا صبح صاغ ضحاكا؟
هـذي عجائـب طالمـا أخِـذت بهـا — عينـاك وانفتحـت بهـا أذناكـا؟
والله في كـل العجائـب مـاثـل إن — لم يكـن لتـراه فهـو يراكـا؟
يـا أيهـا الإنسـان مهـلا مـا الـذي — بـالله جـل جلالـه أغـراكا؟
كـل العجائـب صنعة العقـل الـذي — هـو صـنعة الله الـذي سـواكا
والعقـل ليـس بمـدركٍ إذا — مـا الله لـم يكتـب لـه الأدراكـا
يا منبت الأزهار عـاطرة الشذا هـذا — الشـذا الفـواح نفـح شـذاكا
يـا مجـري الأنهـار: مـا جريانهـا — إلا انفعـالة قطـرة لنـداكا
ربـاه هأنـذا خلصـت مـن الهـوى — واسـتقبل القلـب الخـلي هواكـا
وتركـت أنسـى بالحيـاة ولوهوهـا — ولقيـت كـل الأنـس في نجـواكا
ذقـت الهـوى مـرا ولم أذق الهـوى — يـا رب حلـوًا، قبـل أن أهـواكا
أنـا كنـت يـا ربي أسـير غشـاوة — رانـت عـلى قلبـي فـضل سنـاكا
واليـوم يـا ربي مسـحت غشـاوتي — وبـدأت بالقلـب البـصير أراكـا
يـا غـافر الـذنب العظـيم وقابـلا — للتـوب: قلـب تائـب نـاجاكا
أتـرده وتـرد صـادق تـوبتي — حـاشاك تـرفض تـائبا حاشـاكا

***

المراجع والمصادر

١- ابن أبي شيبة: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٣- ابن الجوزي: الموضوعات، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الاولى، ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦م.

٤- ابن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري، ود.محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩م.

٥- ابن الجوزي: صيد الخاطر، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢م.

٦- ابن القيم: الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م.

٧- ابن القيم: الوابل الصيب، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م.

٨- ابن القيم: شفاء العليل، تحقيق: محمد بدر الدين، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٣٩٨ - ١٩٧٨.

٩- ابن القيم: مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣م.

١٠- ابن المبارك، عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي: الزهد، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١- ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى: إيثار الحق على الخلق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

١٢- ابن حبان: صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت،

الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م.

١٣- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي - بيروت.

١٤- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٥- ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٥م.

١٦- ابن عساكر: تاريخ دمشق، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الاولى ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م.

١٧- ابن كثير: السيرة النبوية، تحقيق مصطفي عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٩٦هـ = ١٩٧١م.

١٨- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

١٩- ابن ماجه: سنن ابن ماجه، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٢٠- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥م.

٢١- أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر

٢٢- أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ.

٢٣- أحمد بن حنبل: المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

٢٤- الألباني: السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٢٥- الألباني: السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م.

٢٦- الألباني: صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، دار الصديق، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ.

٢٧- الألباني: صحيح السيرة النبوية، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى

٢٨- الألباني: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.

٢٩- إميل درمنغم: حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، سلسلة ذاكرة الكتابة، وزارة الثقافة، مصر، العدد (١٠٣)، الطبعة الثانية ٢٠٠٩م.

٣٠- البخاري: الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ = ١٩٨٩م.

٣١- البخاري: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفي البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ = ١٩٨٧.

٣٢- البزار: البحر الزخار المسمى بمسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣٣- البغوي: معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٤- البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

٣٥- البيهقي: سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

٣٦- البيهقي: شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٧- الترمذي: الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٨- توماس كارليل: الأبطال، ترجمة محمد السباعي، سلسلة ذاكرة الكتابة (١٠١)، وزارة الثقافة، القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٩م.

٣٩- الحاكم: المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفي عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.

٤٠- الحلبي: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠ هـ.

٤١- د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.

٤٢- د. علي الصلابي: الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، دار الفجر، القاهرة. الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م.

٤٣- د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة.

٤٤- د. قاسم عبده قاسم: إعادة قراءة التاريخ، كتاب العربي (٧٨)، أكتوبر ٢٠٠٩.

٤٥- د. مجدى الهلالي: الإيمان أولا، فكيف نبدأ به، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى.

٤٦- د. محمد عمارة: عندما دخلت مصر في دين الله، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٤٧- د. مصطفي حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٤م.

٤٨- د. مصطفى حلمي: الإسلام والمذاهب الفلسفية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٤٩- د. هنري ليك: العودة إلى الإيمان، ترجمة د. ثروت عكاشة، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٦ م.

٥٠- ديل كارنيجي: دع القلق وابدأ الحياة، تعريب: عبد المنعم محمد الزيادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة، ١٩٩٤م.

٥١- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النقم، حققه وضبطه وعلق عليه: محمد على النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣م.

٥٢- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة والثلاثون ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨م.

٥٣- السيوطي: اللآليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، دار الكتب العلمية، بيروت

٥٤- الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٥٥- الشوكاني: فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، المنصورة، مصر.

٥٦- الصالحي الشامي، محمد بن يوسف: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.

٥٧- صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات، ترجمة طلعت الشايب، دار سطور، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

٥٨- الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ = ١٩٨٣م.

٥٩- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.

٦٠- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤ م.

٦١- كارين أرمسترونج: الله لماذا؟، ترجمة: د. فاطمة نصر، د. هبة محمود عارف، دار سطور الجديدة، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

٦٢- محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة عشرة، ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧ م.

٦٣- مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٦٤- موقع أمازون لبيع الكتب (http://www.amazon.com)

٦٥- موقع قناة العربية على الانترنت (http://www.alarabiya.net)

٦٦- نديم الجسر: قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن، طرابلس، لبنان.

٦٧- النسائي: المجتبى من السنن، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

٦٨- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م.

❁❁❁

الفهرس

إهداء ٣
تقديم بقلم: أ.د. راغب السرجاني ٥
. مقدمة ٧

الباب الأول
اليقـــــين

كلنا يريد الإيمان ١١
الإيمان.. اليقين ١٨
لماذا نحتاج إلى اليقين؟ ٢١
حلاوة الإيمان ولذة اليقين ٣٣

الباب الثاني

كيف تصل إلى اليقين؟

منهاج السور المكية في تعريف العباد بالله.................... ٤١
التأمل يؤدى إلى اليقين ٤٧
التأمل يحملك إلى باب الهداية................................ ٦٧
التأمل لدى السلف الصالح. ٧٣
تحذير مهم: «لابد أن تتخلص منه فورا» ٧٧

الباب الثالث

تعال نتأمل قليلا.

للتأمل مجالات عديدة ٨٧
تعال نتأمل.. ٩٠
١ - التفكر في الكون ٩٢
٢ - التفكر في النفس ٩٥
٣- التفكر في القرآن الكريم.................................. ١٠١
٤ - التفكر في التاريخ ١٠٥
٥ - التفكر في أسماء الله وصفاته جل وعلا ١١٠
٦ - التفكر في نعم الله ١١٣
هل استشعرت؟ ١١٦
لا تكن أعمى ١١٧

الباب الرابع

تأمــــــــــلات

أمومة وأبوة .. وألوهية ١٢١

مشاهد بسيطة .. عميقة .. محيرة ١٢٤

سيطرة عجيبة ١٢٧

الماء ١٢٩

بغـتة ١٣١

جعلناهم أحاديث ١٣٣

قراءة جديدة لسورة الحديد ١٣٦

خاتمـــة ١٤٥

ملحقات الكتاب

سرعة الضوء ثابت كونى من خلال القرآن ١٤٦

قصيدة ١٥٠

المراجع والمصادر ١٥٢

الفهرس ١٥٧

❋ ❋ ❋